نجيب توفيق

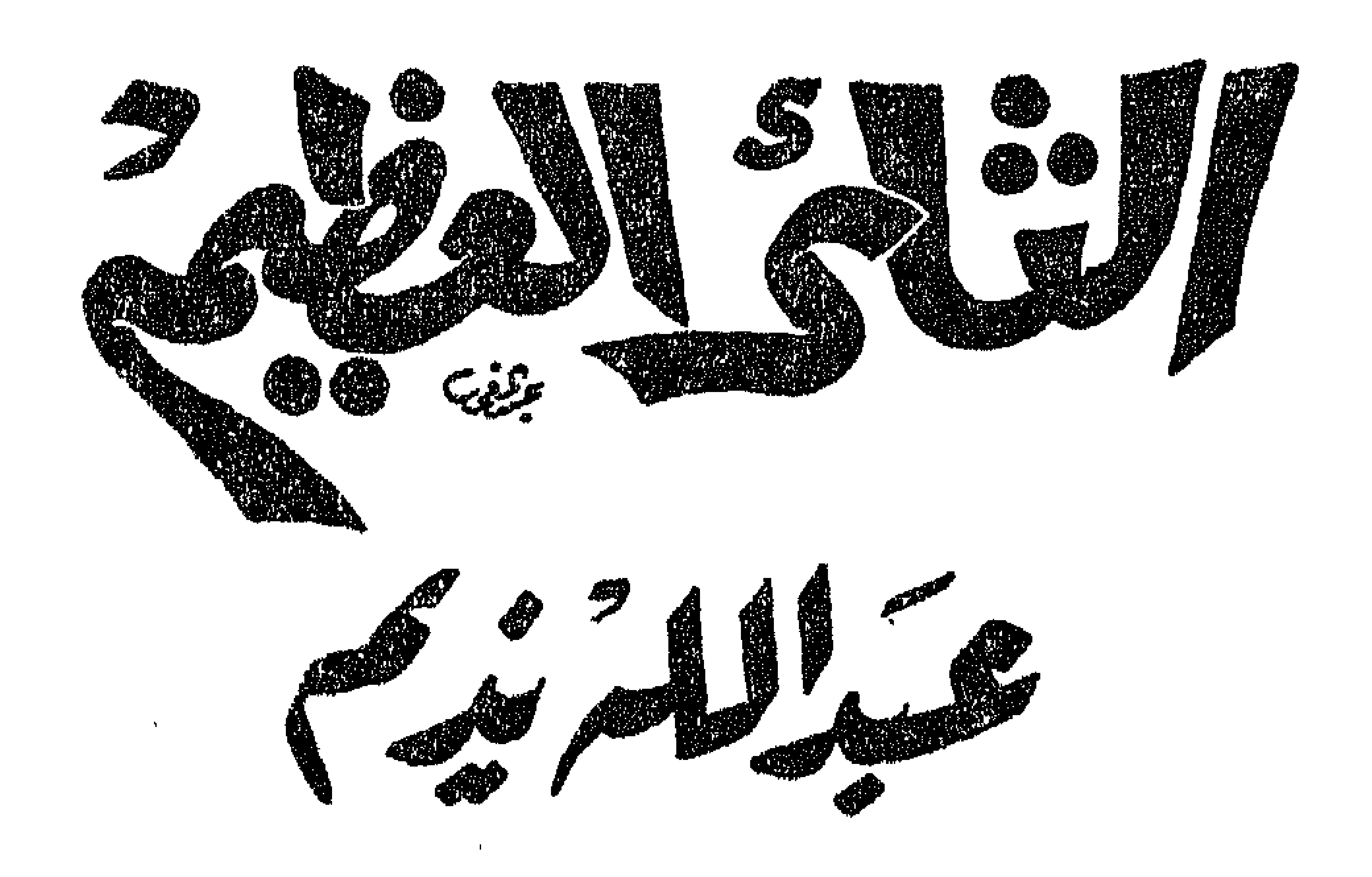
الثائر العظيم

عبد الله نديم

الكتاب الفائز بجائزة وزارة
التربية والتعليم عام ١٩٥٧

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى





بقلم

نجيب توفيق

الكتاب الفائز بجائزة وزارة
التربية والتعليم عام ١٩٥٧

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

مطبعة احمد مخيمر ٤٧١٩٣



السيد عبدالله النديم

الإهداء

إلى روحك الخالدة يا إمام خطباء الحرية فى الشرق ، وملقن الشعب أول معانى الحرية والكرامة والعزة القومية . . .

يا من ترددت أصداء صوتك المجلجل فى جنبات هذا الوادى ، حربا على الظلم والاستعمار والاستعباد والاقطاع . . .

ودعوة خالصة للاتحاد والمحبة والتعاون بين الجميع ، إلى روحك الخالدة يا رسول الحرية الذى أنهض الشرق بعد أن أغفاه ظلم الطغاة قروناً طوال . . .

لقد كان صوتك بشيراً بالاخاء والمساواة بين جميع الطبقات ونذيراً للطغاة والجبارين . . . لقد أديت رسالتك على أكمل وجه ، ولم تلن ولم تعن للقوة الغشوم ، وتحملت فى سبيلها الإيذاء والسجن والنفى والفقر !! وأخيراً كبا بك القدر بين براثن المرض وأنت غريب الدار والوطن !!

وانتقلت روحك إلى الرفيق الأعلى بعيداً عن بلدك الذى أحببته ووهبته حياتك وكل ما تملك .

إلى روحك الخالدة أهدى كتاب الثائر العظيم .

المؤلف

مقدمة

في الصفحات التالية . ترجمة لحياة زعيم شعبي خطير من زعماء الحرية في مصر . نشأ من صميم الشعب ، وعانى في بيئته آلام الفقر والحرمان ، ولكنه جد في التحصيل والدرس بمفرده واستطاع بمواهبه الأدبية الخارقة أن يرتفع إلى مصاف القادة والأقطاب .

ثار في طفولته على طرق التعليم في الكتاتيب فملها ، وطفق يعلم نفسه ويغترف معلوماته ، من ملامسة الحياة الواقعية في شتى صورها . وثار على طرق التعليم في مدارس الحكومة في عهده ، فأدار مدرسة أهلية مستحدثاً لها نظماً تربوية جديدة ، مما يشرف كل معلم مصري حتى الآن . وثار على الظلم والاستعباد بجميع مظاهره . ظلم الإقطاع ، وظلم الحاكمين إسماعيل وتوفيق ، وظلم السلطان عبد الحميد . وكان خطيب مصر العظيم وكاتبها الأول في عهد الثورة العرابية . وحين أضيرت البلاد بالاحتلال البريطاني لم يخشع ، ولم يخضع ، ولم يتنكر لمبادئه وانتضى قلمه ، ورفع صوته ، في عهد كان الجبن مستولياً على ألسن عقدت من الخوف ،

وأقلام أغمدت من الرهبة ، ومبادىء تواترت من الخشية . وكان الصدى الباقى من ثورة الشعب الأولى . فهاج الحكام عليه وضاق الإنجليز به ذرعاً ، فنفى من البلاد .

ومن أعظم المؤثرات على شخصيته كموجه شعبي عظيم . اتصاله بالزعيم العظيم فيلسوف الشرق السيد جمال الدين الأفغانى . الذى تدين له الأمم الشرقية جمعاء بنهضتها السياسية والاجتماعية ، بعد أن ظلت قروناً عديدة . رازحة تحت نير الجمود الفكرى ، والتأخر العلمى ، والاستعباد السياسى .

فكان تلميذه المخلص لمبادئه ، الذى نشر آراءه التحريرية فى كل صقع وناد ، وأسمع الشعب بجميع طبقاته ، مبادىء الحرية ومعانيها ، وأساليب الحكم الدستورى ، وحض على الثورة ضد الجهل والأمية الفكرية ، والتقاليد ، والإقطاع ، وظلم الحكام والاستعمار وأذنابه .

وبينما كان نديم الملوك وسمير العظماء ، فإذ هو الزجال الشعبي الذى ينثر لآلىء أزجاله على الناس ، ويلقى الطرف الرائعة ، من شعر ونثر وحكم وأمثال ودعابات وقصص ، بين جموع الشعب التى كانت تتلهف على استماعه لإشباع جوعها الروحي .فكان بذلك زعيم مدرسة خطيرة للأدب الشعبي .

وكان لعبد الله نديم دور خطير فى تاريخ مصر ، فقد حمل رسالة أكبر زعماء الشرق الحكيم الأفغانى ، ثم تلقى عنه الإرشاد الوطنى فتى غض الأهاب ، وأبر شباب مصر حباً لبلاده ، الزعيم الشاب مصطفى كامل .

لقد وقف النديم حياته جميعاً لخدمة مبادئه ، ولم تلن قناته ولم تخمد جذوته ، رغم ما قابل من ظلم وتشريد وسجن . وظل حاملا علم الثورة ضد الطغيان حتى فى منفاه فى الآستانة . حيث مات وحيداً غريباً بعيداً عن وطنه .

ألا فى سبيل مصر ما لقى من نفى واضطهاد ، وما صادف من جحود ونكران ، وما ضحى من حرية وصحة وجاه . لقد مات شهيد الحرية . وسوف تظل ذكراه باقية على مر السنين والأعوام ؟

المؤلف

الفصل الأول

عصر النديم

١ — الحركة السياسية والفكرية فى مطلع القرن التاسع عشر

قبل أن نتكلم عن الحركة السياسية فى عهد النديم يجب أن نتقصى العوامل الأساسية التى ساعدت على انتعاش الحركة الفكرية فى مصر الحديثة فى مطلع القرن التاسع عشر .

كانت مصر قبل الحملة الفرنسية تغط فى نومها ، وتوشك أن تنقطع الصلات بينها وبين العالم الأوربى ، الذى كان آنذاك فى نهضة قوية ، ولكن أعان على نهضة الحركة الفكرية بها فى هذا القرن ، الحملة الفرنسية وظهور محمد على . ولقد ألفت دخول الفرنسيين ، إلى ضرورة الإصلاح فى العلم والأدب والدين والخلق والعادات والسياسة وسائر معانى الحرية الفكرية والنشاط العقلى .

ثم بدأ يتغير نظر المصريين إلى الحياة ، وأخذوا يفهمون أسماءاً جديدة كالحرية ونظام الحكم وحقوق الشعب ، ذلك لأن الحملة الفرنسية التى قادها نابليون كانت تتألف من أبناء الثورة ، وأبطالها

عن آمنوا بالحرية والإخاء والمساواة ، وكان من نتيجة اتصالهم بالأهالى فهم الحرية ، وكان هذا الفهم بمثابة الضوء الأول الذى ظهر فى ظلام الحياة المصرية وبصر المصريين بحالهم ، وما هم فيه من ظلم وعبودية .

وقد ساعد الفرنسيون كذلك على إنهاض الحركة الفكرية والأدبية بالبـــلاد ، فقد أدت بحوثهم إلى الكشف عن اللغة الهيروغليفية ، ثم دراسة مشروع قناة السويس ثم إحضارهم المطبعة التى ظهرت لأول مرة فى تاريخها ، وكانت مصر آخر دول الشرق معرفة بالمطبعة ، وكذلك الصحافة التى نحا الفرنسيون بها لمصلحتهم فأنشأوا لأنفسهم جريدتين باللغة الفرنسية أولاهما إخبارية خالصة Le Courriere de l'Egypte والأخرى علميــة خالصة Le Decade Egyptienne وكان صدورهما سنة ١٧٩٨ .

ثم أصدر مينو مرسوماً بإصدار جريدة عربية إسمها (التنبيه) سنة ١٨٠٠ ولـكن لم تصدر ، وإنما صدرت سلسلة التاريخ ، التى قام بتحريرها ، السيد إسماعيل الخشاب وهى عبارة عن سجل عام لجلسات الديوان وللحوادث الهامة .

وقد عنى الفرنسيون كذلك بالشئون الصحية ، فأنشأوا المحاجر الصحية ، وخصصوا دفاتر لقيد المواليد والوفيات .

أما الحرية السياسية فلا يغرب عن بالنا أمر هام يتصل وثيق

الصلة بحياة المصريين وحياة الصحافة يومئذ ــ هذا الأمر هو أن نابليون أول من أدخل النظام النيابى فى مصر « الديوان » وهو هيئة حكومية إشترك المصريون فيها لأول مرة فى تاريخهم الحديث ومارسوا فيها فن الحكم وكان ذلك أول خطوة نحو الإصلاح السياسى الذى انتبه إليه المصريون ـــ من حق اشتراكهم فى الحكم ثم الكفاح من أجل الاستقلال .

وكان من نتائج الحملة الفرنسية أيضاً ، أن أخذ الفرنسيون يكتبون عن مصر الكتب الكثيرة مما لفت إليها أنظار العالم الأوربى وجعل لها شهرة كبيرة ، وجذب إليها ، كثيرا من السائحين والعلماء والباحثين .

ولقد كانت الصحافة المصرية فى القرن الماضى معرضاً جميلا للأفكار التى أتت بها الثورة الفرنسية ، وكانت أداة صالحة لنقل هذه الأفكار وخاصة ما كان منها ملائماً (للعقل الشرقى) إلى المصريين وغيرهم من البلاد الإسلامية .

ولم يقصر قادة الرأى العام المصرى فى ذلك وحسبنا هنا أن نشير إلى بعض الكلمات الرائعة والكتب الجميلة والصحف السيارة التى نشرت فيها أفكار الثورة الفرنسية على يد كل من رفاعه الطهطاوى والسيد جمال الدين الأفغانى وأديب اسحق وعبد الله نديم

فهذا هو رفاعه رافع الطهطاوى يسافر فى بعثة إلى باريس ،

ويشاهد ثورة الشعب الفرنسى الثانية على الملك شارل العاشر ، فيكتب عما شاهده بتفصيل فى كتابه عن رحلته إلى فرنسا (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) ثم يترجم العهود التى أخذها الشعب الفرنسى على ملوكه من لويس الثامن عشر إلى لويس فيليب وهى العهود التى يطلق الفرنسيون عليها (La charte) ثم يكتب فى كتب أخرى عن نظام الحكومة الفرنسية ومجلس النواب الفرنسى وكأنه فى ذلك يلتمس لوطنه أسلوباً من أساليب الحكم ينبه قومه إليه .

ثم أتى بعد الطهطاوى صحفيون كانت مهمتهم التوفيق بين مبادىء الثورة ومبادىء الشريعة الإسلامية .

أديب إسحق : أما أديب إسحق فكان شاباً سورياً ، نهل من الثقافتين العربية والفرنسية ما أعده لأن يكون صحفياً ناجحاً وأديباً من الطراز الأول — أتى إلى مصر وعاش بها حتى نشر أكثر صحفه ، ثم نفى منها إلى باريس حيث نشر جريدة مصر القاهرة وفيها تحدث إلى المصريين عن الثورة الفرنسية ووفق فى أفهام المصريين بعض معانى الثورة بأسلوبه الرائع البديع الذى يفيض بالقوة والحياة ، واستطاع أن يصل المصريين بالمعانى الحقيقية لكلمات الوطن والوطنية والأمة والحرية والمساواة والدين والدولة ، ووجوب الفصل بين الأخيرين كما استطاع أن يوجه المصريين إلى أدوات الكفاح السياسى والقومى والعلمى ، ودعا إلى مجانية

التعليم ووجوب نشره ، وباختصار نقل إلى المصريين خلاصة طيبة لمبادىء الثورة وأفكارها ونتائجها .

عبد الله أبا السعود : ونرى أيضاً من المواطنين الذين أسهموا فى تلقين النفوس معانى الوطنية عبدالله أبا السعود تلميذ الطهطاوى ، فقد نقل إلى العربية تاريخ مصر ومهره بمقدمة شرح فيها معنى حب الوطن ، فهو شىء أعلى من التعلق بمسقط الرأس فإنه يقوم على حب العمل الجيد ، وعلى الرغبة فى التعاون ، وعلى روح التضحية فى سبيل الخير العام .

حسين المرصفى : ونرى كذلك حسيناً المرصفى فى مؤلفه « الكلم الثمانية » يفسر الكلمات التى كانت تشغل أذهان الطبقة النيرة من مثل كلمة الوطن والحركة والحكومة . . . الخ .

٢ — الحركة السياسية قبيل ظهور النديم

كانت مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر مسرحاً لألاعيب السياسة ، فقد كانت فريسة الشد والجذب بين طمع الدول الأوروبية ، وأهواء الباب العالى، وأثرة الأسرة الحاكمة وكان الخديو إسماعيل فى أواخر أيام حكمه ، وقد ناءت البلاد من ظلم حكومته المطلقة ، وإرهاقها الأهالى بالضرائب ، والأحكام الجائرة .

ومنذ إنشاء قناة السويس وافتتاحها رسمياً سنة ١٨٦٩ وهى أهم طرق المواصلات بين الشرق والغرب ، وأعين المطامع الاستعمارية ، متفتحة تلتمس الفرصة للانقضاض على استقلال البلاد .

وقد كان فى انجلترا فى منتصف القرن التاسع عشر حزب سياسى حر يخشى على الإمبراطورية البريطانية من تشتتها واتساعها ويحارب الفكرة الاستعمارية ، فلما تكونت فى أوروبا الجمعيات الجغرافية ، وكثرت اكتشافاتها فى القارة الإفريقية وربطت قناة السويس أجزاء الإمبراطورية بعضها ببعض ، عدل الحزب الحر عن آرائه وظهرت أهمية قناة السويس الحربية والسياسية .

منذ ذلك الوقت أخذت انجلترا وفرنسا تتنافسان فى استغلال مصر ووضع اليد عليها ، وقد شجع ذلك ظهور إسماعيل بمظهر من لا يحسب حساباً للعواقب ، ولا ريب أنهم كانوا يقرضون إسماعيل بأفحش أنواع الربا ـ وقد وضح الكاتب الإنجليزى سيموركى سنة ١٨٨٢ بأن مصر كانت قد دفعت لغاية هذا العام ، جميع دينها الحقيق ، أى المبالغ المقترضة حقيقة بفائدة ٦ فى المائة ، ومع ذلك فقد ظلت مثقلة بدين رسمى لا يقل عن التسعين مليون جنيه . وقد أدت هذه الديون التى استدانها إسماعيل فيما لا موجب له ولا ضرورة منه ، إلى تدخل الأجانب فى شئون البلاد الداخلية .

اختلت الإدارة أكثر من ذى قبل ، ووضحت نية القوم وقلق

المصريون على مستقبلهم ، وقد تجلى هذا القلق أثناء الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ وهنا نذكر ما كتبه الإمام محمد عبده فى مذكراته عند ذكر جمال الدين وآثاره فى النهضة المعنوية فى مصر قال :

« وكان طلبة العلم . . . وطلبة جمال الدين ينتقلون بما يكتسبون من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد ، خصوصاً القاهرة كل ذلك والحاكم القوى فى علو مكانه أرفع من أن يناله هذا الشعاع فى ضعف شأنه ، ولا يزال هذا الشعاع ، يقوى بالتدريج البطىء . وينتشر فى الإنحاء على غير نظام ، إلى أن نشبت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا فى سنة ١٨٧٧ . . . . وجد الناس من نفسهم لذة الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم مع دولة روسيا — فتطلعوا إلى ما يرد من أخبار الحرب ، وكثرة الأجانب فى هذه البلاد ، سهلت ورود الجرائد الأوروبية إلى طلابها من الأوربيين ، ومخالطتهم للعامة والخاصة ، مهدت الطريق إلى العلم بما فيها » .

وسرى هذا الشعور إلى بعض الجرائد العربية ، فخرجت عما درجت عليه من التحرير فى الأمور الداخلية البحته ، وانطلقت فى إيراد الحوادث ، فوجد بين الناس ، الناقم على تلك الجرائد

والمناصر لها ، وحدث بين العامة نوع من الجدال ، لم يكن معروفاً من قبل ، ثم استحدثت جرائد كثيرة لمباراة ما سبقها ، فى نشر الأخبار رغم مخالفتها .

ولم يكن ما ينشر فى الجرائد محصوراً فى حوادث الحرب ، بل اجترأ الكثير منها على نشر ما أصبحت عليه سائر الأمم فى سيرتها السياسية والمعاشية ، مما فتح الأذهان وأيقظ الأفكار ونبه العقول ، وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدأ فى الحكومة المصرية من سوء الأحوال المالية ، وأخذ السيد جمال الدين فى حمل من يحضر مجلسه ، من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير وإنشاء الفصول فتسابقت إلى ذلك الكتاب ، وأخذت الحرية الفكرية ، تظهر فى الجرائد وكان هذا التاريخ (سنة ١٨٧٧) منشأ ظهور حركة المعارضة وصحافة المعارضة فى البلاد ، ومن يطلع على إعداد جرائد مصر والتجارة ومرآة الشرق والأهرام يرى حقيقة ما ذكرناه .

وقد يتوهم بعض المؤرخين أن اهتمام المصريين بالحرب الروسية التركية ، يرجع إلى شعورهم الدينى ، وتعلقهم بدولة الخلافة ، التى كانت مهددة بالاضمحلال ، والواقع الذى لا شك فيه ، أن اهتمامهم كان سياسياً أكثر منه دينياً ، لأن تقسيم الإمبراطورية العثمانية كان معناه وقوع مصر فى قبضة انجلترا .

ثم بدأت الصحافة العربية السياسية ، تظهر فى مصر ، وبدأ

الرأى العام يقوى أمام ضعف إسماعيل إزاء التدخل الأجنبى ، ووجدت البــــلاد حركة قومية دستورية ترمى إلى تقييد سلطة الحكومة المطلقة التى كانت فى الداخل رمز بطش وجبروت ، وفى الخارج رمز ضعف واستكانة ، وإلى إصلاح داخلية البلاد ، وماليتها لتخليصها من ربقة الأجنبى وكانت الفكرة الدستورية تستمد قوتها من العوامل الآتية :

(ا) وجود مجلس نواب صورى منذ سنة ١٨٦٦ — كان آلة فى يد إسماعيل ، فلما تطورت الأحوال ، أراد المصريون توسيع سلطة المجلس وإعطاءه حق الرقابة الفعلية ، على أعمال الحكومة .

(ب) بث جمال الدين الأفغانى فى مصر منذ وفوده إليها سنة ١٨٧١ فكرة تأسيس نظام دستورى لعلاج أحوال الشرق المقبلة .

(حـ) تمادى الأجانب فى إطماعهم ، وسطوهم على حقوق البلاد ، لأن إسماعيل لا يعتمد على حكومة شعبية ، مرتكزة على الأساس الدستورى وبالتالى فهى حكومة ضعيفة تعمل لمصلحة حاكم مستبد .

(ء) كان للبعثات المالية الإنجليزية ، التى وفدت إلى مصر فى الفترة (١٨٧٦ — ١٨٧٩) أسوأ الأثر فى التشهير بسوء إدارة إسماعيل ، والنيل من روح ولاء المصريين له ، حتى ينفضوا من حوله ويسهل للأجانب اغتصاب سلطته .

وقد لعبت بعثة السير ريفرس ولسن (١٨٧٨) الدور الأكبر

فى هذه السياسة فنددت فى الأقاليم المصرية بأعمال إسماعيل وطلبت من المصريين ، أن يقدموا ظلاماتهم إليها ، ثم صرحت فى تقرير لها أن الحكم المطلق أصل البلاء ، وحملت إسماعيل بمرسوم ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ على إنشاء مجلس وزراء متضامن فى مسئوليته ، برياسة نوبار وعضوية ريفرس ولسن وزيراً للمالية ودى بلنيير وزيراً للأشغال .

وكانت هذه الوزارة تنفذ أغراض انجلترا السياسية والمالية ، فقضت على سلطة الحاكم الشرعى ، وانفردت بالأمر .

وكان أكبر همها الحصول على المال بكل الوسائل ، إرضاءاً للماليين ، الذين مهدوا للساسة سبيلهم ، وقد عنيت الوزارة الأوربية بحشد الموظفين الأجانب فى الحكومة المصرية ، وحرمت الإدارة من المال اللازم ، وبالجملة فقد زادت الأمور اختلالا لم تعرفه مصر من قبل .

قام مجلس النواب فى أول عام ١٨٧٩ يطالب بتقرير حقوقه من حيث عرض القوانين المتعلقة بالشئون المالية عليه ، ووجوب موافقته عليها قبل تقريرها وذلك اعتراضاً على إغفال حقه فى ذلك فى المرسوم الصادر فى ٦ يناير سنة ١٨٧٩ الذى كان يقضى بأن القوانين المتعلقة بالشئون المالية تصدر بعد تقريرها من مجلس

الوزراء والتصديق عليها من الخديو فقط ! وقد تقدم بهذه المعارضة النائبان محمود بك العطار وعبد السلام بك المويلحى . وقد قامت الصحافة المصرية تؤيد هذه الحركة وتطالب بتحقيق مبدأ المسئولية الوزارية ، أمام مجلس النواب لا أمام انجلترا وفرنسا .

وقامت فى الوقت نفسه خارج المجلس حركة معارضة قوية يرأسها شريف باشا وأخذت تطالب بإنشاء وزارة دستورية بحتة ، مسئولة أمام مجلس النواب وقد تألفت فى ٧ / ٤ / ١٨٧٩ .

* * *

لعل ما كانت تعانيه مصر فى هذه الفترة الدقيقة من تاريخها من تدخل الأجانب وترك موارد البلاد ومرافقها فى قبضة الشركات الأجنبية ، تستغلها لحسابها ، وترك الإدارة المصرية فى أيدى الأوربيين ، وترك إسماعيل البلاد بعد ذلك فى يونيو سنة ١٨٧٩ وهى مثقلة بالديون ، ما جرح المصريين فى عزتهم القومية ، فأعلنوا تعهدهم بسداد الديون (ديون مصر) أياً كان مصدرها ، بشرط أن يتولى المصريون إدارة بلادهم تحت الرقابة الأجنبية على أن تكون رقابة مالية بحتة — ولكن عبثاً حاول المصريون فى أواخر حكم إسماعيل أن يتخلصوا من الحكم الأجنبى ، فقد كان الإنجليز أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد ، حتى أوائل حكم توفيق ، وكان الخديو والوزراء آلة بأيديهم يحركونها كيف يشاءون .

٣ — النهضة الأدبية

لما جاء محمد على وولى على مصر فى ١٨٠٥/٥/١٣ جعل من أهم أهدافه تقوية الجيش لتحقيق أغراضه ، وتثبيت دعائم سلطانه وكان معظم الجيش وقتئذ من جنود البانيين فأبدله بمصريين وارتبط كل النشاط العلمى فى عهده بالجيش لاحتياجه إلى مهندسين وضباط وأطباء ومدرسين وصناع وإداريين .

فأوفد إلى أوربا ثلاث بعثات علمية فى أزمنة مختلفة ، فتكونت ثلاث طبقات من العلماء والأطباء والمهندسين والضباط ، فنقلوا إلى اللغة العربية عشرات من الكتب الجليلة فى العلوم المختلفة ، فأحدث ذلك فى اللغة العربية انقلاباً عظيما ، واكتسبت من سعة الأغراض والمعانى والألفاظ العلمية والأساليب الأجنبية وطرق الاستنباط وترتيب الفكر ثروة طائلة .

وعهد إلى هؤلاء الأساتذة ومن سبقهم ومن لحقهم ، من الأوربيين إنشاء المصانع الوفيرة والمدارس الكبيرة من ملكية وحربية . وحاول أن يجعل اللغة التركية أساسية أو شبه أساسية فى التعليم والسياسة والإدارة ، ولكن تعذر عليه ذلك ، فاضطر إلى مجاراة طبيعة البلاد ، فأصبحت العربية لغة كل ذلك ، وظهرت على اللغة التركية واللغات الأوربية التى كانت تدرس وجوباً معها.

ثم صـــدرت أول جريدة عربية وهى الوقائع المصرية

فى سنة ١٨٢٨ وحرر فيها أولا بالتركية ، ثم عهد تحريرها إلى الشيخ حسن العطار والشيخ شهاب الدين فحررت فصولها بالعربية والتركية ، ثم اقتصر فيها على العربية بعد ذلك .

وهكذا وجد العلماء والأدباء مجالا مناسباً ، لنشر ثمار قرائحهم وإنتاج أقلامهم من كتاب وشعراء ومنشئين فى جريدة الوقائع المصرية .

وهاجر كثير من السوريين إلى مصر ، وانتظموا فى سلك العمل بالحكومة والمدارس المصرية . ودخل كثير من نصاراهم مدارس الدعاة ، الذين كان أكثرهم من المستعمرين العارفين باللغة العربية فدرسوا العلوم وألفوا الكتب، باللسان العربى ، ونبغ فى مدارسهم رجال كانوا زهرة سورية ، وغلب عليهم الأدب ، من الشعر والكتابة وترجمة الروايات الأدبية ، واتخذوا ذلك صناعة يتكسبون منها . وشجعت الحكومة الترجمة والمترجمين ، فكسب العصر زاداً طيباً من المعارف ما بين علمية واجتماعية واقتصادية وسياسية وأدبية ، وظفرت المكتبة العربية بنفائس من كتب الغرب .

ولقد كان لشيوع تعليم اللغات الأجنبية وجعل تعليمها إجباريا فى مدارس الحكومة والجمعيات ومدارس الرهبان والدعاة ، أن انتقلت كثير من المعانى والأساليب الإفرنجية التى يقبلها الذوق

الغربي إلى اللغة العربية فأثرت بذلك ، وحصفت الأفكار واتسعت أغراض القول .

ثم كان بعد ذلك من تعدد المدارس النظامية فى عهدى محمد على وإسماعيل وإنشاء مدرسة دار العلوم وكثرة الصحف المصرية ، وكانت أول صحيفة عربية أهلية بعد الوقائع هى مجلة « اليعسوب » سنة ١٨٦٥ لمنشئيها محمد على باشا الحكيم وإبراهيم الدسوقى وجاءت بعدها « وادى النيل » سنة ١٨٦٦ أنشأها أبو السعود افندى ـ و « روضة المدارس » سنة ١٨٧١ و « الوطن » سنة ١٨٧٧ ـ ومن الصحف السورية « الكوكب الشرقى » لسليم باشا حموى سنة ١٨٧٣ و « الأهرام » سنة ١٨٧٥ و « المقطم » سنة ١٨٨٨ الخ .

فجال هؤلاء وأولئك فى السياسة والأدب ، فأنشأوا فن المقال الصحفى وكان للشاميين أثرهم وفضلهم على الصحافة الشعبية المصرية .

ولا يفوتنا أن نذكر من أسباب النهضة الأدبية الأخيرة إنشاء المحاكم الأهلية وتنظيم التقاضى والترافع بها باللغة العربية وكثرة الأندية والمحافل السياسية والأدبية والعلمية ، وانتشار فن التمثيل باللغة العربية وتنظيم التعليم وجعله محدداً بالشهادات الدراسية، واعتبار الحصول عليها شرطاً فى خدمة الحكومة .

٤ — الحالة الإجتماعية

تطلع المصريون إلى الغرب من زاوية السياسة فوقعت أبصارهم فيه على المعانى الجديدة لحرية الفرد وحقوقه، ونظام الحكم وتطلعوا إليه من أفق الاجتماع فاسترعت انتباههم حضارته المتألقة وعاداته البراقة، فاندفعوا يعبون من أنوار مدنية جديدة، استحوذت على ألبابهم وأفكارهم فأغفلوا الملابس الشرقية كالجبة والعباءة والعمامة وارتدوا الطرابيش والبدلات الأفرنجية، وتضاءلت الأزياء القديمة وحلت محلها الأزياء الأوربية، ودخلت العوائد الأوربية فى أساليب المآكل والولائم، فأخذ الناس يمدون الموائد، ويتناولون طعامهم على النمط الأفرنجى واستتبع ذلك بالأسف محاكاة الأجانب فى تناول المشروبات الروحية، فعم منها الفساد وصارت من شر الآفات التى ابتلى بها المجتمع المصرى.

وانصرفوا فى فن البناء عن الطرز العربية الجميلة التى كانت متعة النواظر فى القصور والدور، إلى احتذاء الهندسة الأوربية، التى توفر لهم أنظمتها أسباب الراحة، ومال الشباب فى أوقات فراغهم عن الجمود والقعود إلى الألعاب الرياضية، يزاولونها ويقضون فيها الساعات الطوال وتخلق الناس بالأخلاق الغربية فى أحاديثهم وندواتهم

وعكفوا على اللغات الأجنبية يتحدثون بها أو يمزجون طرفا منها باللغة العربية تأنقا .

وخرجت المرأة كذلك عن العادات الشرقية المأثورة ، وتراخى حبل المحافظة على العادات والسجايا العربية ، واندفع الناس فى تيار التقليد الممقوت للغربيين ، يأخذون منهم الغث والثمين مفتتنين بالجديد ، حتى غرقوا فى موجة التفرنج ، وامتدت إلى أصول الأخلاق فعصفت بها حتى أصبحت المقامرة ، والمضاربة بالمال عادة مستحكمة ، والرشوة والمحاباة داء عضالا فى جسم المجتمع ، وحتى كاد التأنق عند بعض الشبان ينقلب إلى لوثة من الرقاعة والفساد فأفاق العقلاء من غفوتهم وانتضى المصلحون أقلامهم يدرأون عن أبناء الوطن هذا الوباء الجارف .

وأقبلت الطبقات الممتازة على حضور المسارح ، ومشاهدة التمثيليات وزاد إقبال الناس على الموسيقى والغناء ، وارتقت أساليب الأخير وزادت مكانة المغنين فى النفوس ، ونالوا من محبة الناس حظا عظيما ، وفى مقدمتهم عبده الحمولى الذى كان أمام المغنين فى عهده بلا منازع . وابتدع الخديو اسماعيل سنة الرقص الأفرنجى ، فكان يقيم فى سراى عابدين والجزيرة ، حفلات راقصة (بللو) بالغة منتهى الفخامة وكان يدعو إليها الكبراء وذوى المراكز الاجتماعية ، ورجال السلك السياسى وعقيلاتهم - وعنه أخذ بعض المصريين

هـــذه السنة ، ودخل الرقص الأفرنجى إلى مجتمعنا المصرى حتى يومنا هذا .

وكان لحفلات الأفراح فى ذلك العصر بهجة بالغة ، فقد كان السراة والأعيـان يفتنون فى تفخيمها وتعظيمها ، ويتنافسون فى مظاهر البذخ والإسراف فيها ، وعنهم أخذ بعض المصريين من الطبقتين المتوسطة والفقيرة ، فاستدانوا لأجل هذه الأغراض ووقعوا فى ورطة الديون والارتباك المالى فى حياتهم الخاصة .

وامتاز هذا العصر ببهجة الحفلات العلمية المدرسية ، التى كانت تقـام لمناسبة انتهاء الدراسة فى المعاهد العـالية ، والمدارس الثانوية والابتدائية .

وكان لحفلات سباق الخيل فى ذلك العصر من مظاهر الروعة ما كان يدفع الجمهور إلى مشاهدتها فى القاهرة (بالعباسية) واستمرت حفلات الموالد والأعياد موضع إقبال الناس ورعاية الأحكام .

النهضة النسائية : ـ بدأت النهضة النسائية فى عصر إسماعيل فقد أنشأت الزوجة الثالثة لإسماعيل (جشم آفت خانم أفندى) اول مدرسة للبنات بالسيوفية وناظرتها السيدة روزه ولما زاد الاقبال عليها اعتزمت إنشاء مدرسة أخرى أعظم منها، وأتمت بناءها فعلا، وقبل افتتاحها كان إسماعيل قد بارح القطر هو وزوجاته معه فأهمل شأن المدرسة وشغلتها الحكومة ببعض الدواوين ومكانها

الآن تشغله (وزارتا الأشغال والمواصلات) ثم أنشئت بعد ذلك المدارس المختلفة لتعليم البنات وبدأت المرأة تشترك بنصيبها فى النهضة الاجتماعية والأدبية فكانت «عائشة عصمت تيمور» طليعة هذه النهضة .

وكان لرفاعه بك الطهطاوى فضل كبير فى تعليم المرأة ، فهو أول من دعا إلى تعليم البنات وتتجلى فكرته من وضعه كتاباً مشتركا لتثقيف البنات والبنين على السواء سماه (المرشد الأمين للبنات والبنين) سنة ١٨٧٣ - ثم كثرت بعد ذلك مدارس البعثات الأوربية مثل مدرسة راهبات الراعى الصالح بشبرا (أنشئت سنة ١٨٤٤) ومدرسة راهبات القديس منصور فى الموسكى (أنشئت سنة ١٨٤٥) ومدرسة الرسالة الفرنسيسكانية الإيطالية (أنشئت سنة ١٨٥٩) ثم بالمنصورة وكفر الزيات والاسماعيلية فقامت هذه المدارس بالاضطلاع بعبء تهذيب الفتاة وتربيتها .

التمثيل : وقد بدأ التمثيل فى الربع الأخير من هذا القرن ، يستقيم له كيانه فى مصر ، وتفتح له بعض الأحيان أبواب دار (الأوبرا) ويعنى به الحكام ، وتألفت الأجواق التمثيلية كجوق يوسف خياط وسليمان القرداحى وأبى خليل القبانى واسكندر فرح ومال إليه الكتاب يغذونه بالمسرحيات المترجمة وأشهر هؤلاء نجيب الحداد .

طبقات الشعب :

الأسرة الحاكمة : ـ تفرعت الأسرة الحاكمة وكثر عدد أفرادها في عهد خلفاء محمد على ، وصاروا يمثلون طبقة السادة والاقطاعيين في المجتمع فابتنوا القصور الفخمة وعاشوا في حياة كلها كسل ودعة ، في غمار الخمول والملذات والرفاهية على حساب هذا الشعب البائس المحروم .

ورغم أن محمد على اهتم بتنشئة أنجاله وتعليمهم، ولكن خلفاءه قصروا في الاندماج في الشعب والاعتزاز بالانتساب إليه ، فكانوا ينفرون من الاختلاط به ، واستعمال لغته ويتخاطبون إما بالتركية أو باللغات الأجنبية الأخرى ، وقد أدى الأمر ببعضهم إلى أن تنكروا لهذا الوادى بأسره ، وآثروا المعيشة في الخارج سواء في الآستانة أو في أوربا باعتبارهم غرباء عن الشعب .

ثم بعد ذلك تشاحنوا فيما بينهم ، وسادت بينهم الفرقة والعداء وحسد الحاكم منهم باقى أفراد عائلته، فعباس الأول كان يمقت سعيد وارث الملك من بعده ، وحنق على عمته حتى شرع في قتلها ، وكان اسماعيل يسيء الظن بجميع الأمراء من آل بيته وقد بدا عليه حين وفاة سعيد عدم رعاية واجب الاحترام لعمه، فدفن بالإسكندرية بدون احتفال ، وفى نفس الوقت أقيمت الأفراح بالقاهرة ايذانا

باعتلائه عرش مصر ثم عادى إسماعيل أخاه مصطفى فاضل ، وعمه عبد الحليم، حتى أرغمها على بيع أملاكهما ، واقصائهما عن البلاد نهائياً .

الموظفون : ارتفع مستواهم الثقافى عما كانوا عليه من قبل - وانحط مستواهم فى الوطنية والأخلاق ، ورعاية مصالح الشعب وساءت الإدارة بانتشار الرشوة ، ومظالم الحكام واغتصاب الأملاك ، والعبث بحقوق ابناء البلاد .

الزراع والصناع والتجار : ساء حال الفلاحين بما زاد عليهم من ضرائب ، وما اقترن بالقوة فى تحصيلها ، وظلت السخرة سائدة فى هذا العهد ولم تكن قاصرة على المنافع والأعمال العامة بل كانت تستخدم لاستصلاح اطيان الخديو واطيان الحكام - وكانت قاعدة الحكام فى معاملة الفلاحين العسف والإرهاق ، وكانت طريقة جباية الضرائب والإقتصاص ممن يخالفون الأوامر (حتى بأسباب قهرية مشروعة) الضرب بالكرباج - وكثيراً ما كان يقع غضب الحكام على الفلاحين العزل ، بغير ماذنب أو جريرة سوى شهوة الظلم والبغى واستلاب الحقوق - ولم يكن ثمت قانون ولا قضاء عادل ، يحميان الضعف وينصفان المظلوم - ولا رقابة على الحكام من حكومة عادلة ، أو مجالس نيابية أو صحافة أو رأى

عام . كما وقع على الأهالى ارهاق آخر من ناحية الأجانب من المرابين ، إذ وجد هؤلاء من حسن رعاية الحكومة ، ومن حماية الامتيازات الأجنبية ، ما جعلهم يتمادون فى استغلالهم للفلاحين حتى انتزعوا منهم الأموال والأملاك ، وكبلوهم بالديون الباهظة ، ولم يتحرر الفلاح فى هذا العصر من الفقر والفاقة والجهل والانحطاط الاجتماعى ، وظل يعيش عيشة الكد والكدح بأقل الحاجات والنفقات .

الفصل الثانى

حياة النديم

هو عبد الله بن مصباح بن ابراهيم، ولد أبوه فى بلدة الطيبة من قرى مديرية الشرقية فى ٢٠ ذى الحجة سنة ١٢٣٤ ثم انتقل إلى ثغر الاسكندرية فكان فى مبدأ أمره نجارا للسفن بدار الصناعة ثم تبرم فى العمل فهجره، واتخذ مخبزا صغيرا، يصنع فيه الخبز ويبيعه، ويحصل من ذلك على الكفاف من العيش وهكذا عاش هذا الرجل حياة بسيطة مقترة، مسكن متواضع، وملبس لا يراعى فيه إلا أن يؤدى أغراضه الضرورية، فى حى وطنى فقير قريباً من حى القبارى بالاسكندرية يسمى (كفر عشرى).

١ — الفترة الأولى من تاريخ حياته

فى هذه البيئة الناضبة والحياة القاسية، ولد عبد الله فى ١٠ ذى الحجة سنة ١٢٦١ هـ (١٨٤٣) وكان والده رجلا جادا فى عمله، قنوعاً بكسبه، مستقيما فى حياته، من بيته إلى مخبزه إلى مسجده، أرسل ابنه إلى الكتاب على باب حارته كما يفعل الناس من مثل طبقته، يرسلون أبناءهم إلى الكتاب زمنا ما، يتلقون ثمالة من معلومات، وقليلا من مبادىء القراءة والكتابة

والحساب وتحفيظ القرآن الكريم ، فإذا اشتد متنهم ، وقوى جسمهم ، أخذوهم إلى دكاكينهم فى مثل صناعتهم التى تتوارث كما يتوارث المال[1] — وقد بدا على الصبى الصغير من الذكاء ما جعله يبذ رفاقه فى حفظ القرآن ، واستيعاب ما تلقنه فى الكتاب قبل أن يبلغ التاسعة من العمر ثم أخذ هذا الولد يختلف مع الصبية من أمثاله إلى جامع يقال له (جامع ابراهيم باشا) حيث درس الفقه والأصول والمنطق ثم لم يصبر على الدرس ولم يحتمل جفاف هذه الدراسة وعناء فهمها فلم يواظب ولم يبد اهتماما وفر من الجامع . . . ولكن إلى أين . . . إلى التسكع فى الطرقات وحشر نفسه حشراً بين الجماعات — فإذا وجد جماعة من الناس يتناشدون الزجل أو الشعر أو يتبادرون الملح والنوادر أو يتماجنون بما أرادوا من ألوان المجون ، أندس بينهم واستمع بكل أذنيه لهم وأودع ذلك كله خزانة تعرف كيف تحفظ كل شيء يستقر بها فكانت حافظته القوية وذاكرته العجيبة هى كل ما يملكه من أسباب التفوق على أقرانه ثم أصبحت فيما بعد - أعنى فى وقت الشباب والكهولة - كل ما يملكه من أسباب الشهرة الشعبية التى وصف بها .

---

(١) الأستاذ أحمد أمين فى كتابه زعماء الإصلاح .

وقد حبب إليه هذا النوع من الدراسة غير المنظمة أنها توافق مزاجه وتناسب استعداده فأخذ يصاحب الناشئين فى الأدب ، ويغشى مجالسهم ويجالس أساتذتهم .

ولم يكن للأدب فى ذلك العهد ، درس منظم ، ولا منهج علمى محدد ولكنه كان هواية ، كذى الصوت الجميل يهوى الغناء فيقلد من سبقه .

أليس عجيباً أن فتى هذا شأنه لم يتمم دراسة أى منهج دراسى بالمدرسة أو الجامعة ، ولا أخذ نفسه فى أول الأمر بشىء من جد الحياة ، فى وقت الطلب ، يصبح فى زمن ليس بالطويل ، إماما من أئمة الأدب فى عصره ، ورائداً من رواد النهضة فى أمته ؟ !

الحق أن القارىء لحياة هذا الرجل ليؤمن إيمانا لا ريب فيه ، بأن ملابسة الحياة نفسها ، ومخالطة الناس على اختلاف طبقاتهم ، ربما كانت أقوى تأثيرا فى النفس وتكوينا للخلق من الجامعة أو المدرسة .

ولا غرابة فى ذلك فالحياة الواقعية نفسها ، كانت أهم مصدر لثقافة رجل كبير من رجالا الأدب العربى (وهو الجاحظ) وجاءت كل تصانيفه أكبر شاهد على ما نقول :

تخيل معى هذا الفتى الصغير ، وهو يجول فى أنحاء الاسكندرية أو فى أرجاء طنطا أو المنصورة أو القاهرة يستمع إلى السوقة

وهم يتحدثون ، أو إلى الخاصة وهم يتحاورون ويغشى الموالد حينا ويزج بنفسه هنالك فى غمار هذه الطائفة التى عرفت باسم (الأدباتية) ليلتقط ما يقولون ، ويقلدهم فيما يفعلون ، لا تفوته حركة من حركاتهم ولا من حركات الناس جميعاً فى ذهابهم وإيابهم ، ولا تضيع منه همسة ـ وكأن ذهنه آلة تصوير تهيأت لا لتقاط كل هذه الأشياء المتعددة ـ وكما قال الأستاذ أحمد أمين [1] :

والنفس الحساسة تختزن حتى حفيف أوراق الشجر ، وهفهفة الأغصان ، ودبيب النمال وحلاوة البسمات وأدق مجالى الجمال والقبح ، ثم تعرف كيف تستخدم ذلك فى فنها متى آن أوانه » .

ولما لم يوفق إلى طريقة فى الكسب ترضى والده ، نفض منه يده ، فأخذ عبد الله يبحث عن وجه للكسب فاتجه إلى تعلم فن الإشارات البرقية ، وإذا تم له ذلك التحق بمكتب التلغراف بمدينة بنها ثم ابتسم له الحظ فشغل مثل هذا العمل بمكتب « القصر العالى » حيث تسكن والدة الخديوى اسماعيل (الأميرة جوشيار خانم أفندى) [2] وقد كان قصراً من أفخم القصور ، يقع على النيل فيما يسمى الآن « جاردن سيتى » وكانت أسباب الرفاهية والترف متوفرة فيه ، لما كانت عليه أم اسماعيل من حب للفن ، فقد كانت فى شبابها جميلة

(١) كتاب زعماء الإصلاح .
(٢) مذكرات أحمد شفيق باشا الجزء « ١ » .

الصورة وبقيت آثار هذا الجمال على محياها مدة حياتها ، وكانت لا تألو جهداً ، فى استيفاء أسباب المتعة والسرور ، وكانت تقيم مع حاشيتها أولا فى سراى الزعفران بالعباسية ثم انتقلت منها إلى القصر العالى .

فى هذا القصر العظيم عاش النديم فترة هامة من فترات حياته . كان لها أثر كبير فى نفسه . لما أفاده من معرفة أساليب وطرق معيشة طبقة الأمراء والسادة فى عهده . وما كان يحيط بسكان ذلك القصر من ترف ومبالغة فى أسباب الرفاهية والاستمتاع ، ولا بد لنا أن نستعرض بعض مما زخر به هذا القصر من صور . لنلم ببعض ما انطبع على نفس النديم من آثارهما .

كان بالقصر فرقة مكونة من أربعين عازفة تحت اشراف مديرة حائزة على دبلوم عال فى الموسيقى . فى غاية الجمال والرواء . وإذا ما وقفت تدير الفرقة فى إحدى حفلاتها بالدار كانت تبدو مرتدية (جاكتة) من الجوخ الأحمر المزخرف بالقصب وسروال (بنطلون) من الصوف . وقد رصع صدرها بالنياشين . وفى يدها عصا فضية وعلى رأسها طربوش . وكان يشترك معها فى هذا الزى جميع العازفات .

وكانت هذه الفرقة تعزف بصفة عامة فى أيام الاستقبالات وفى أيام الأعياد والمواسم والأفراح الخديويه . وكلما رغبته

الأميرة للاستماع بصفة خاصة . وقد اشتهرت هذه الفرقة بمعزوفاتها في الحفلة الكبرى التي عقد فيها زواج الأمراء توفيق وحسن وحسين (المشهورة بأفراح الأنجال) حيث عزفت عددا كبيراً من القطع الموسيقية الغربية المشهورة والتركية والعربية .

وكان بالبهو الداخلي فرقة موسيقية شرقية تشمل غير العازفات عدداً من الفتيات المصريات والتركيات ذوات الأصوات الرخيمة كما كان يوجد أيضا فرقة من أجمل الرقصات الأوربيات وفرقة مسرحية لتمثيل الروايات الكوميدية .

كما كانت الأميرة كذلك مهتمة باختيار مجموعة ممتازة من الجوارى والوصيفات . ممن كن على جانب كبير من الحسن والذكاء والجمال . معتنية بتربيتهن تربية عصرية على أيدى المربين والمربيات من أتراك وأوربيات . ولا مبالغة إذا قيل أن عدد من كان بالسراى من الجوارى والحسان واتباعهن من السودانيات يبلغ الألف .

وكان على رأس هذا القصر . خادم مرهوب الجانب . قوى الشكيمة . كبير النفوذ هو (خليل أغا باشى أغا الأميرة) وليس أدل على نفوذه من رئاسته لجميع الحفلات الكبرى بالقصر . وقد روى المؤرخون المعاصرون أنه فى أثناء حفلة أفراح الأنجال

التي دعى إليها الأمراء والعلماء والوزراء وكبار الأعيان . أن الجميع كانوا يقبلون يديه عند مقابلته . ابتغاء مرضاته ورهبة لجانبه . ولا غرو فى ذلك فقد كان له من النفوذ فى الدوائر الحكومية ما يستطيع به أن يرفع من يشاء وينكل بمن يشاء وكان أيضا من ذوى الثروات الضخمة .

عاش النديم العامل الصغير فى هذا الجو العجيب . وكان فى أوقات فراغه يتردد على مجالس الخاصة والأدباء النابهين فى عصره وبصفة خاصة ندوة جمال الدين الأفغانى التى كان يعقدها أحيانا فى بيته وأحيانا فى مشرب (قهوة[1]) خاص بالأزبكية حيث يتحلق حوله انصاره ومريدوه ، يستمعون إليه فى شغف واهتمام بضع ساعات فى كل مرة .

وكذلك مجلس محمود سامى البارودى باشا وكان مجلسا عامرا يسمر فيه السمر اللذيذ ، وتستعرض فيه طرائف الأدب المتنوعة قديمها وحديثها . وتلقى فيه الروائع الممتعة من النوادر الأدبية والفكاهات والملح الطريفة والقصائد الرائعة . والنقد القيم لما يكتب ولما يروى ، والأحاديث المتنوعة فى أسلوب جميل وبيان أخاذ . وهكذا تناول النديم على هذا السماط الأدبى أشهى ألوان الأدب وأروع فنونه . وتوثقت الصلة بينه وبين كثير من أدباء مصر . وكان يختلف أحيانا إلى الجامع الأزهر يستمع فيه لبعض ما كان

(١) يقال أنها قهوة متاتيا الآن .

يلقى من محاضرات فى الدين والشريعة والتفسير . وقد تعرف هناك بصديقه العالم الكبير الشيخ حمزة فتح الله .

وقد حدث للنديم فى القصر حادث ذى بال . كان له أثر كبير فى حياته فيما بعد . لقد اصطدم بخليل أغا ناظر القصر المشرف على شئونه . والسبب فيما نظن ، هو عدم إذعانه لأوامره ونواهيه مما يتنافى منها مع كرامته وشخصيته وعدم رغبته فى التزلف إليه . ولقد ذكرنا آنفاً نفوذ خليل أغا فى الدولة وعند الخديوى إسماعيل. وجدير بنا أن نقف هنيهة أمام هذا الحدث الخطير لأنه أول صراع بين رئيس طاغية ومرؤوس من الأحرار . وهكذا ثار النديم لأول مرة فى حياته ضد طاغية جبار من أذناب إسماعيل . فلم يرهب جانبه ولم يعن لقوته ، وقبل الفصل من عمله والتعرض للفاقة والحرمان ، حيث أن طرده من القصر العالى يعنى عدم قبوله فى أى عمل حكومى بالبلاد .

وقد انتهى به الأمر أن اشتغل مدرساً لأولاد العمد والأعيان بمديرية الدقهلية وقد تخاصم مرة مع أحد العمد بأسباب تدريسه لابنه وعدم استيفائه أتعابه ، فاضطر إلى تركه بعد أن هجاه أقذع هجاء . فى قصيدة له شحذت لسانه ، وراضت فنه الشعرى . وكان لهذه الحادثة أثر كبير فى تحريك مواهبه وتنبيهه إلى قدراته الأدبية الفائقة وتنبيه الناس إلى خطره .

ثم اتصل بأحد أغنياء المنصورة . ممن يقدرون الأدب وأهله فاستضافه بداره ثم فتح له متجراً يبيع فيه العصائب والمناديل . ولكنه بدلا من انشغاله بعمله الجديد ، والاهتمام بتجارته ، اتخذ من دكانه منتدى للأدباء يتذاكرون فيه الأدب ويتناشدون الأشعار. وكان من الطبيعي ألا تنجح تجارته لعدم توفره لها . فأغلق دكانه وطوف بالبلاد لغير ما غاية معينة أو سبيل مقصود . غير أنه يزور الأعيان والأغنياء فى الأرياف ممن يقدرون الأدب . ويجيدون الاستماع ويطربون لجميل السمر .

وهكذا كان هذا الأديب العجيب ، ينشىء فى طوافه ورحلاته فى ربوع الريف (صالوناً أدبياً) متنقلا . يستمتع فيه الناس بصنوف رائعة من الأدب وألوان متعددة منه وأخيراً حط رحاله فى مدينة طنطا ، وقد حدثت له حادثة غريبة فيها ، ولنسمع منه هذه القصة بقلمه :

« كنت بمولد السيد البدوى ، ومعى بعض الأصدقاء ، وجلسنا على قهوة الصباح نتفرج على أديب وقف يناظر آخر ، فلما فطن أحدهما لانتقادنا عليهما وعلى زجلهما استلفت أخاه إلينا وخصانا بالكلام ، فأخذا يمدحاننا واحداً فواحداً إلى أن جاء دورهما إلىّ - فقال أحدهما يخاطبنى :

أنعم بقرشك يا جندى	ولا اكسنا أمال يا فندى
ألا أنا وحياتك عندى	بقى لى شهرين طول جعان

فقلت له على سبيل المزاح :

أما الفلوس أنا مديشى　　وانت تقول ما امشيش

يطلع علىّ تحشيشى　　أقوم أملصلك الأودان

واستمرت المساجلة الزجلية بينى وبينهما حتى غلبتهما .

ولما بلغ شاهين باشا ذلك ، وأنى غلبت الأدباتية ، طلب شيخهم ووعده إن غلبونى يعطيهم ألف قرش ، وإن غلبتهم يضرب كل واحد منهم عشرين سوطاً ، وأعد الباشا حفلا كبيراً لهذه المباراة الأدبية ، ثم أخذوا يقولون والنديم يرد عليهم واحداً بعد واحد واستمرت هذه المساجلة طويلا حتى أفحمهم .

ويحسن بنا الإشارة إلى البيوت الأدبية فى القرن الماضى ، فقد كانت مجتمعاً للأصدقاء من ذوى العلم والفن ، يسمرون فيها السمر اللذيذ ، ويتحدثون الحديث الظريف ، وكان بيت شاهين باشا مفتش الوجه البحرى إذ ذاك ، من هذا الطراز ، كرم حاتمى ، وذوق أدبى ، واحتفاء بالأدب وأهله ، فتعرف به عبد الله النديم بعد الحادثة السابقة ، فنال تقديره وإعجابه ، بطلاقة لسانه وخفة روحه ، وحاضر بديهته ، واتخذه له نديماً .

وحضر النديم اجتماعا حافلا فى منزل الباشا ، وتحامل عليه كل القوم حتى اقترح بعضهم عليه إنشاء قصيدة يعارض بها دالية المتنبى المشهورة التى مطلعها .

أقل فعالى بَلَهْ أكثره مُجْدِ

وكانوا يقصدون بذلك تعجيزه فغضب النديم وأمسك القلم وأنشأ قصيدة أولها .

ومن عجب الأيام شهمٌ أخوحجا يعارضه غر ويفحمه وغد
ومن غُرر الأخلاق أن تهدر الدما لتحفظ أعراض تكفلها المجد

٢ — الفترة الثانية من تاريخ حياته

وإلى الآن كان النديم غارقاً فى لهو الحياة ، منغمساً فى هذا العبث اللفظى الذى كسب به بعض الأصدقاء ونال به تقدير بعض الكبراء ، ولم يختط لنفسه خطة واضحة فى الحياة ولا نهجاً معيناً من مناهج السعى والكفاح تسير سفينة حياته على غير هدى وإلى غير قصد ـ ولعله كان يحسب أن سيبقى طول حياته على هذه الحال ؛ ولكن أمراً ما دعاه إلى السفر إلى الإسكندرية ـ مسقط رأسه ـ وهناك انبعث فى الفتى انبعاث جديد ، وكان ذلك عام ١٨٧٩ وقد بلغ عمره خمسة وثلاثون سنة وهو أكثر خبرة بالحياة . وهناك رأى الناس لايشتغلون بما كانوا يشتغلون به بالأمس ، من الأسمار المسلية وأشعار أبى نواس والبحترى وهجاء ابن الرومى ومديح إسماعيل ، وفكاهات الشيخ الليثى إلى غير ذلك من الفكاهات المضحكة

والأحاديث الفارغة، يقضون بها أوقات فراغهم . نعم هاله أن رأى مدينة الإسكندرية ، وقد اتشحت أحاديث الجماعات بها بثوب الجد والرصانة ، فهي يومئذ تتحدث في أمور خطيرة ، تتصل بمستقبل البلاد ومصيرها وأعمال الحكام ومصالح الأهالى ، وتردد الألسنة آنذاك كلمات خاصة منها صندوق الدين وتدخل الدول الأجنبية؛ والشورى والظلم والاستعباد والاستقلال والحرية والجهل والعوز ونحو ذلك .

وهنا بدأت نقطة التحول في حياة النديم ، فقد انضم لجمعية سياسية سرية تدعى « مصر الفتاة » لنقد الأوضاع السياسية القائمة والدعوة للإصلاح — وهكذا انبلج فجر حياة الكفاح والنضال ، وانتقل بأفكاره ومواهبه من توافه الأغراض إلى عظائمها — ومن هامش الأعمال إلى صميمها ، وكتب لنفسه هذه الشهرة التي نتحدث عنها والتي خلدت ذكره فيما بعد في صفحة الجهاد الوطني .

وتوثقت الصلة بينه وبين صحبة ثائرة ، تتطلع إلى نوع من الأدب غير الذى كان ، وتجد غذاءها في الصحف السياسية والمقالات النقدية فيشتغل في صحافة من هذا النوع أديب اسحق وسليم نقاش في جريدتهما مصر والتجارة ويمدها جمال الدين الأفغاني وتلاميذه بمقالاتهم وإرشاداتهم ومن بينهم عبد الله نديم الذى صادفت رسالة الأفغاني هوى وشغفاً في فؤاده ، فانضم إليه وأصبح أشد المتحمسين له .

وانغمس النديم فى هذا التيار وحوّل قلمه إلى هذا الإتجاه فلقيت مقالاته من النجاح ، ما لفت إليه الأنظار .

ثم فكر مع بعض أقرانه من أعضاء جمعية مصر الفتاة ، أن يحولوها من جمعية سرية إلى جمعية علنية ، تقوم بمشروعات إنشائية ، لمنفعة البلاد ، ونشر الروح الوطنية بين أبناء الشعب وسمّوها الجمعية الخيرية الإسلامية (غير الموجودة حالياً) وقد أنشأت هذه الجمعية مدرسة لتعليم أبناء الشعب على نمط جديد يختلف عن النمط الجاف الذى كان متبعاً فى مدارس الحكومة إذ ذاك، وقد جمع مالا من أعيان الثغر فى سبيل تنفيذ هذا الغرض .

وسرعان ما تم إنشاء المدرسة ، وعين النديم مديراً لها وكان ذلك فى أواخر عهد إسماعيل، وشارك النديم مشاركة قوية فى وضع مناهجها بل قام هو بتدريس مادتى الأدب والإنشاء فيها ولم يأل جهداً فى تمرين التلاميذ على الخطابة والتمثيل ، ثم حين عزل إسماعيل وتولى مكانه توفيق توسل إليه النديم أن يحضر إمتحان المدرسة ، فحضر بنفسه وسر بإجابات التلاميذ ، ثم سأله أن يعهد إلى ولى عهده (الأمير عباس) برياسة المدرسة ، فمنح الخديو المدرسة هذا الشرف وأتى لزيارتها ومعه ولى العهد فى يوم حافل ، أعد له النديم ثمانى وعشرين خطبة ، ثم أكثر النديم من إقامة الحفلات وكان التلاميذ يقومون فيها بتمثيل الروايات التى صادفت نجاحاً وتقديراً .

وبقى النديم على هذا العمل ، يشتغل فيه بعقله وقلبه وأعصابه ودمه ، حتى كاد له إخوانه بالجمعية الخيرية واختلقوا له تهماً ، فلما شعر بحرج موقفه استقال من إدارة المدرسة وكذلك من عضويته بالجمعية بخطاب أدبى رائع .

بعد ذلك احترف النديم الصحافة ليتكسب منها ويجد المجال لبث أفكاره ونشر المبادىء التى يؤمن بها فى شعب تأدب بأدبه ، وقد سبر غور شعوره ونفذ إلى ما يستقر بين جوانحه ، من آمال وأمانى ، وتوفر على دراسة نفسيته بتغلغله فى طبقاته جميعها . وكانت أولى صحف النديم التى ظهرت باسمه صحيفة « التنكيت والتبكيت » (ستتحدث عنها بإفاضة حينما نتكلم عن النديم الصحفى) .

ثم ظهرت بوادر الثورة العرابية — وكانت شدة النديم قد سرت فى الشعب المصرى على اختلاف طبقاته ، وزادها سرياناً ما طبع عليه النديم من ميل للخطابة واستعداد لها إلى درجة ربما لم تتيسر لشخص غيره فى مصر منذ القرن الماضى إلى اليوم .

فقد كان النديم يظهر فى كل مجتمع ويقف فى كل حفل ويخطب فى كل ناد ، ويرتجل الكلام ارتجالا ويتدفق فيه تدفقاً ، تسعفه فيه بديهة لم نسمع بمثلها فى تاريخ الأدب المصرى الحديث ، وإذ ذاك فكر رجال الثورة منذ بداية الأمر فى أن يكسبوا لأنفسهم رجلا ذرب اللسان ، سريع الخاطر ، كعبد الله نديم ، وما أسرع ما انضم

هذا الرجل إليهم ووجد فى ثورتهم مجالا لإشباع نهمه فى الخطابة من جهة وشغفه بالصحافة من جهة ثانية . ثم هى بعد ذلك الأمل الأكبر للوطنيين جميعاً للخلاص من ظلم طال أمده ، واستعباد جثم على ربوع الوادى عدة أجيال . ثم استخدم جريدته لأغراض الثورة وغير إسمها كرغبة أحمد عرابى إلى الطائف تيمناً بطائف الحجاز وتفاؤلا بأنها ستطوف بالأرض كلها ، وتطبق شهرتها الآفاق وقد انتقل بها إلى ميدان القتال يحرض الجنود .

وانتهت الثورة بالهزيمة المعروفة ، ووقفت البلاد بأسرها ، فى محنة عظيمة ، وقبض على الزعماء واختفى النديم يومئذ عن الأنظار . ولاختفائه وهربه قصة عجيبة ، فيها من الأحداث والمفاجآت المثيرة ما يزيد فى طرافتها وروعتها ، وقد يبدو للقارىء لأول وهلة ، أنها تشبه القصص الروائية الخيالية ولكن سيزداد إعجابه إذا عرف أنها قصة حقيقية لا أثر للخيال فيها ، إنما هى وقائع حقيقية حدثت على مسرح الزمن وعلى أرض مصر .

حين أيقن العرابيون من هزيمتهم بعثوا بعريضة مع وفد منهم إلى الخديو بالإسكندرية يتوسلون بها إلى عفوه ، ثم أرادوا أن يعدلوها فبعثوا بعريضة أخرى بعدها ، وأوفدوا بها عبد الله النديم ، فلما وصل إلى كفر الدوار نمت إليه أنباء العريضة الأولى من رفض الخديوى لها والقبض على مقدميها ، فعرف أن الدائرة قد دارت . .

والمصائب أقبلت والنكبة حلت . . . ولا بد أن يهرب . . . ولكن أين المهرب ... ؟

الطائر الشادى الذى غنى فأطرب الناس ، حُرِمَ الحرية التى عاش لها وبها ، يرنم ترانيمها ويبشر بقرب عهد جديد لها ، فتنتعش القلوب الذابلة . ودفعته الأقدار لأن يهيم شارداً فى طول البلاد وعرضها تائه اللب موزع البال .

حُرم الحرية وهام فى مسالك الأرض وشعابها ، لا يدرى أين السبيل والمفر . إنه ليس بالغنى ذى اليسار ، ليهاجر من وطنه ويختار بين آفاق الدنيا الواسعة ، ومغانيها الساحرة مكانا طيباً يلوذ به ، وركنا هادئاً يخلد فيه للراحة والاستقرار ، مثل غيره من مهاجرى السياسة وطريدى الظلم .

فأخذ يستخفى وينتقل من مكان لآخر فى أنحاء القطر .

تسعة أعوام طويلة تقلب فيها النديم على أسوأ ظروف يمكن أن تحيط بإنسان ، قاسى فيها من صنوف العذاب والمشقة أشكالا وألوانا . مما أصاب جسمه بكثير من العلل والأسقام، نتيجة لما ابتلى به من معيشة فى أماكن ، لو قيست بالسجون لهانت الأخيرة أمامها حيث تتوفر فيها أبسط القواعد الصحية الضرورية .

لقد صبر واحتمل بهدوء وأناة ، آلام المنافى التى أمها ، مادامت تساعده على إخفاء شخصيته من عيون متفتحة ، وجواسيس رصدتهم

الحكومة للكشف عنه ، تحوم منقبة فى كل مكان سواء طرقته قدماه أو لم تبلغه يوماً من الأيام .

وما ظنك بفرد ضعيف لا حول له ولا قوة ، لا جماعة حوله تسنده ولا عصبة قوية تظاهره ، يقف من جانب ، ومن الجانب الآخر الحكومة بأسرها بقواتها ، يحركها الإحتلال المتجبر بجيوشه، وشعب أعزل مستكين للغاصب واقع فى أسر الذل والهوان وقد فرضت الحكومة على كل من تسول له نفسه من المصريين مساعدة النديم أشد العقوبات مبالغة فى التضييق عليه حتى يستسلم لها .

فمن ذا الذى يتجرأ على معاونة النديم جهاراً ، أوله من الشجاعة الكافية أن يحض الناس على حمايته أو معاونته . . . لا ، بل كان الذين يعطفون على النديم أفراد متفرقون، لا تجمعهم جامعة ، فاقوا بوطنيتهم وإيثارهم الغير ، وضربوا أروع الأمثال فى نبل الإحساس وعظمة الأخلاق ، وسامى الوطنية .

وقد زاد الطين بلة ، أن الحكومة رصدت مكافأة قدرها ألف جنيه لمن يرشد أو يدلى بمعلومات تؤدى إلى العثور على النديم وليست الألف جنيه بالمبلغ الهين فى وقت كان المال قليلا وقيمته كبيرة ولعل هذا دليل صارخ على تقدير الحكومة لخطر النديم، الذى كان من أقوى أركان الثورة العرابية ، والخطيب العظيم الذى هز أسماع المصريين ، والصوت القوى المجلجل الذى أثار أمة بأسرها ضد

الظالمين وأعوان المحتل الغاصب . لذلك سخت الحكومة بهذه المكافأة الكبيرة لما فيها من قوة الإغراء ، لتسخير النفوس الضعيفة والقلوب المريضة التي لا يصعب عليها أن تتنكر لوطنيتها ، في سبيل الغنم والمنفعة المادية .

حقاً إنها لعوامل قوية تلك التي تآزرت ضد النديم ، فالحكومة لم تجند رجالها فحسب بل كل فرد في البلاد للقبض على زعيم الحرية ورجل الشعب ، لذلك عاني النديم من الآلام النفسية ما تهون أمامه آلامه الجسدية ، فهو يتنقل من مكان إلى آخر لا يستقر له قرار ولا يطيب له مقام ، وكان يتنكر بشتى الطرق وتَسَمَّى فعلا بتسعة أسماء ، فتارة يتسمى بالشيخ يوسف المدني وتارة بالشيخ محمد الفيومي والثالثة بالحاج علي المغربي ورابعة بفلان اليمني وخامسة بفلان النجدي وهكذا ، وقد أثبت في ذلك إجادة وخبرة في فن التنكر ، أنقذته من مؤامرات كثيرة . وكان يلبس لكل حالة لبوسها ، حتى ليخيل إليك أنك تقرأ عن شخصية من شخصيات المقامات في الأدب العربي . وأمعن النديم في التنكر حتى أشاع عن نفسه أنه سافر إلى خارج القطر ، ونشرت جريدة فرنسية تقرأ في مصر أن النديم هاجر إلى مدينة ليفورنو بإيطاليا ، فصدقت الحكومة الخبر وعنفت رجال الحفظ بشدة ، لإهمالهم مراقبة الموانى حتى تيسر للنديم سبيل السفر للخارج وكان من أثر هذه الإشاعة أن خف البحث عنه .

كم ألمت بالنديم من مشاعر ، فى تلك الحالة السيئة ، التى عاش فيها ، وأى اضطراب توزعته نفسه ، وأى قلق استبديه ، يعيش نهاره فى ليل ، وليس فرق لديه بين النهار والليل ، فكلما غربت شمس حمد الله وشكره ، وآوى إلى مخدعه ، وهو ليس إلا دعاء خافت لله ، أن يكشف كربته وصدر محتجن يئن أنيناً خافتاً ، من آثار بلواته ، وكلما أشرقت شمس ترقب ماتفاجئه به الأقدار وما تجىء به الأخبار ، من أنباء التجسس عليه ، والكشف عن مكانه ، حتى إذا ما أحس بآثار خيط ضئيل يحاول أن يصل بعيون الجواسيس إلى مكانه ، حزم عتاده البسيط ، وهام فى مناكب الأرض ، لا يلوى على شىء حتى إذا وفق إلى مكان أمين حط فيه متاعه . . .

كانت فرصة هربه وتنكره ، محكا لأخلاق الشعب فى أشد أوقات محنته — فقد كتب صفحات من الوطنية المشرفة بالإيمان والمروءة والكرم — فكم من بيت أكرمه ، وقد يكون صاحبه من طبقة فقيرة ليست بذات غنى ، وكم من قلب نبيل حنا عليه ، وأحاطه بكل رعاية واحترام ، مع ما فى هذا من خطر عظيم . كان ذلك امتحاناً لنفوس المصريين وكانت نتيجته تثلج الصدر وترصع التاريخ بلآلىء من مفاخر ومناقب شعبية . لقد اشترك فى ذلك أفراد كثيرون من جميع طبقات الشعب ، وأسهموا

فى إكرامه وحمايته ورعايته ، هو وخادمه وزوجتيهما فدل ذلك
على وعى وطنى صادق .

وقد ألقت الأقدار به يوماً إلى بلدة تسمى العتوة القبلية ،
بمديرية الغربية فاختفى عند عمدتها الشيخ محمد الهمشرى ، فأكرم
مثواه وأضافه فى داره زهاء ثلاث سنوات معتبراً كفرد
من أفراد عائلته ، حتى لقد تزوج فى هذا البيت ، وأنجب بنتاً
وماتت ولم يشعر به أحد ، حتى إذا مات ذلك المحسن الكريم
وكانت له زوجة مثله فى الشهامة والمروءة استحضرت إبنها الأكبر
مشفقة حزينة ، حازمة رفيقة ، وقالت له : « يا بنى إن المرحوم
والدك ، كان كريماً وبراً بلاجىء وطنى ، أسكنه معنا ، وأصبح كفرد
فى أسرتنا ، لم يعطف عليه كمسكين فقير ولكن عامله كضيف كريم
أوذى فى سبيل وطنه ، واعتبر أن ما فعله هو الواجب ليس عليه
فحسب بل على جميع أبناء الوطن . لقد حكم على هذا المجاهد
أن يعيش هائماً شريداً ، لا ينعم بظل وارف يفيء إليه ، ولا بمقام
هانىء يستقر فيه ، بل حرم عليه أن يتنسم أنسام الحرية التى طالما
نادى وبشر الناس بها .

وقد قررت الحكومة أن تكافىء من يدل عليه بمبلغ ألف جنيه
فهل تكون يا ولدى من هؤلاء الذين أغراهم المال عن الوفاء ؟
وخدعتهم الحياة الدنيا وزخرفها ، عن الحياة الآخرة ؟ وهل تريد

أن تخسر جزاءك عند ربك وجزاءك من وطنك؟ . . هل تأبى أن تكون مواطناً كريماً بلاجيء احتمى بدار والدك من شر الطغاة، ومكائد الظالمين ، ولم يرتكب إثماً ولم يقترف وزراً ، حتى إذا ما ملك الإبن التأثر ، لم يبد حراكا ، ولم يثر نقاشاً ، ووافق على رأيها وقرر أن يبقى على عهد أبيه للنديم . ولعمرى أن ماأتته تلك الأسرة من مكارم الأخلاق وعلو الهمة لما يندر مثله فى هذا الزمن . وقد فارق النديم هذا البيت لما أحس باكتشاف أمره .

وتنقل المترجم من بلد إلى بلد ، وماتت زوجته ثم ذهب إلى القرشية ، نزيلا عند أحمدباشا المنشاوى فكان يجتمع به صديقه القديم الأديب محمدالتميمى وغيره وتزوج هناك بنت مصطفى أفندى منى من المحلة الكبرى ولظروف غريبة ، انتقل إلى دار التميمى فى ذى القعدة سنة ١٣٠٥ فأقام بها شهراً ثم سافر إلى الدلجون بمديرية البحيرة ، فلم يمكث بها إلا نحو أسبوع ، وعاد إلى الغربية وقصد البكاتوش فكان يقيم عند عمدتها الشيخ إبراهيم حرفوش وينتقل تارة إلى دار جاره أحمد جودة ، وكان رجلا قوى الجنان يصاحبه إذا أراد الإنتقال من بلد إلى بلد فى ظلام الليل الحالك ، وجعل المترجم إقامته بين البكاتوش وشباس الشهداء ينزل فيها عند محمد معبد الحلاق ، فلقى عنده من الكرم والمروءة ما يخفف من آثار مصيبته . ولم يزل عنده حتى انتقل إلى صديقه الشاعر

محمد افندى شكرى المكى كاتب مركز دسوق . وقد ذكر المرحوم أحمد باشا تيمور أن الشاعر المذكور أخبره :—

« بينما أنا بالمركز يوماً إذ دخل على الشيخ إبراهيم حرفوش عمدة البكاتوش ، فسلم وجلس ، ولمحت منه أنه يريد أن يسر إلىّ أمراً ، فترقب خلو المكان ، ثم أخبرنى أن شخصاً عنده مشتاق إلىّ وهو صديق إلىّ لم يرنى منذ ثمانى سنوات، فاستخبرته عنه فانصرف ولم يخبرنى به ثم تردد علىّ بعد ذلك يذاكرنى فى هذا الصديق ولا يبوح باسمه ، حتى وثق منى فأخبرنى إنه مختف وإسمه عبدالله فقلت عبد الله النديم فقال نعم هو ، فكتبت له بيتين من نظمى وسألته توصيلهما إليه وهما :—

ولقد نذرت إذا لقيتك سالما لأقبِّلَن مُواطىء الأقدام
ولأثنين على سجاياك التى حثت على التحرير والأقدام

فذهب بها وعاد لى بعد يومين بقصيدة من نظم المترجم بخطه ، عدتها مائة بيت يتشوق فيها إلىّ ، ويذكرنى ما لاقاه أيام الثورة والإختفاء ، ويتمنى لو فرج الله عنه فيفعل كيت وكيت وكأنه نسى نفسه، وما هو فيه من ضيق ، وبعد أسبوع حضر لى إبراهيم حرفوش ومعه ورقة بخطه ، يطلبنى فيها إليه يوم الجمعة بشباس الشهداء ، فذهبت معه فى الميعاد فوجدت محمد معبد الحلاق ينتظرنى فذهب بى إلى داره وهى دار صغيرة على تل

وقد أنزلوا المترجم فى مكان عال ، لا سلم له فصعدت إليه على سلم من الخشب ، رفعوه بعد صعودى فلما التقينا ووقعت العين على العين تعانقنا طويلا وأدركتنى عليه شفقة ، فقبلت يده ثم جلسنا نتحادث فى القديم والحديث وأطلعنى على كتبه التى ألفها مدة الإختفاء منها بديعية له شرحها شرحاً لطيفا لم يكمله ، وثلاثة دواوين من نظمه وجزء من كان ويكون ، ثم فارقته وقت العصر » .

ولعلنا نلمس من هذه القصة ، مقدار العناء البالغ الذى لاقاه النديم فى مقابلته أحد أصدقائه ، ومدى ما يبذله مضيفوه من احتياطات فى سبيل إخفائه من عيون مبثوثة وآذان مرهفة ، وعسس دائب البحث عنه .

ومن الوقائع المأثورة أنه لما قام من ميت الغرقا قاصداً العتوه ، صادفه فى طريقه أحد مأمورى المراكز وكان جركسياً ومعه قوة صغيرة من الجند ، فأمرها أن تسبقه قليلا ، ثم لوى عنان فرسه إلى المترجم ، ولما اقترب منه إبتدره قائلا « لا ضرورة للتنكر ، فقد عرفتك وأنت النديم » فلم يكن له بد من الإعتراف بجلية أمره فقال له المأمور لا بأس عليك إذهب فى دعة الله وحفظه ، ولا تخف واعلم أنى وإن كنت جركسى الأصلى فانى عربى الكرم ، ولهذا وهبتك حياتك ، وتنازلت عن كل ما عسى أن أناله بواسطة القبض عليك ، من الرتب والمناصب ، لتعلم أن للكرام بقية

ـــ ولكن إياك وهذا الطريق المسلوك فربما صادفك من يقبض عليك ـــ ثم مد يده إلى جيبه وأخرج ثلاث جنيهات ودفعها إليه وكانت هذه النقود هى كل ما معه .

وتتجلى فى هذه الحادثة أيضاً روح عالية نادرة المثال من مأمور جركسى قد ضحى بكسب مادى كبير وترقية حكومية كان سيحظى بها .

وكان فى أول أمره شديد الحنين لأبيه وأمه وأخيه ، لا يعرف ما صاروا إليه ، شديد الشوق لمعرفة كتبه ، وتآليفه وأوراقه التى تركها فى بيته بالإسكندرية ثم وسّط صديقاً له فرنسيا ، أن يتعرف كل ذلك ، ويأتيه بالأخبار ، فعرف الفرنسى أن أسرته تشتتت والناس تنكروا لهم ، والأرصاد وضعت حولهم ، وأن أباه يقيم عند قريبة له فى الريف .

وكان فى رحلته برآ بخادمه « حسين » الذى غير اسمه فسماه « صالحاً » ، وزوجه وعلمه القراءة والكتابة ، وحفظه جملة سور من القرآن ، وعلمه مبادئ الفقه والتوحيد واتخذه صاحباً .

وتواردت عليه أيام بؤس ومحن يشيب منها الوليد تغضب عليه زوجته وتلطمه على فمه حتى تكاد تسقط ثناياه ، وربما رأى ـــ مع هذه الحال ـــ أن إظهار نفسه للحكومة أهون عليه ثم يترضاها ويصالحها ، وأحياناً تتخاصم زوجته مع زوجة خادمه ، وتشتد الشحناء وتهدد كلتاهما بأن تفضح أمره ، فيتدارك كل ذلك

بحيله ، وأحيانا يشعر بالخطر يهدده ، فيشتد فى الحذر والاستخفاء حتى لقد استخفى مرة فى قاعة مظلمة لا يتوصل إليها إلا من سرداب طويل مظلم ، يرشح الماء من أرضها ، لقربها من ترعة ، ولا يتمكن من القراءة والكتابة فيها إلا على مصباح صغير ، يضاء بالجاز ، فيملأ الحجرة دخانا ، ويستمر فيه نحو تسعة أشهر - لشد ما أتعب نفسه في استخفائه وأتعب الناس معه ! ولكن ما أكثر ما أبهجهم بعذب أحاديثه وطلاوة فكاهاته ، ووعظه وسحر بيانه .

وأخيراً نزل « بالجيزة » فعرفه عمدتها ، وكتم أمره ، ولكن رجلا إسمه حسن الفرارجي — كان جنديا إستخدم جاسوساً — لما بصر بالمترجم ، أنكر حاله لما رآه عليه من سيماء الإختفاء ، ورجح أنه عبد الله نديم ، فكتب إلى السراى وإلى الداخلية فأمرت بالقبض عليه ، فحضر من المديرية محمد أفندى فريد وكيل الحكمدار ومعه قوة ، فالتفوا حول البلدة ، وأراد «النديم» الهرب بحيله القديمة فلم يستطع فاستسلم ، وكان من حسن حظه أنهم لم ينتبهوا إلى أوراقه وكان فى بعضها هجاء شديد للخديو توفيق ، وكان القبض عليه فى ٢٩ صفر سنة ١٣٠٩ ﻫ واستخفاؤه فى سنة ١٢٩٩ ﻫ وأرسل إلى طنطا للتحقيق معه وكان وكيل النيابة إذ ذاك قاسم بك أمين ، فأحسن معاملته ، وأمر بتنظيف وإضاءة مكانه فى السجن ، وقد انتهى الأمر بعفو الخديو عنه وعمن آواه ، ونفى خارج القطر .

فاختار يافا ، وسافر إليها على أحد البواخر المصرية وشيعه محافظ الإسكندرية عثمان عرفى باشا ، ولما رست السفينة على ساحل يافا نزل إليه بعد أن دفع له ربانها خمسين جنيها إعانة من الخديو وقد وصل إليه فى غروب الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٠٩ ونزل عند السيد على أفندى أبى المواهب مفتيها ، ولما دخل داره وعرفه بنفسه قام وعانقه وبكى ، ثم أقام عنده شهراً ثم اتخذ له داراً وعرفه أعيانها وفضلاؤها وأكرموه وواسوه — وقد أقام فى يافا نحو سبعة أشهر فكانت داره ناديا عاما يجتمع فيه أفاضل القوم وسراتهم ، للبحث والاستماع للأحاديث الأدبية ، وفى تلك الأثناء كانت تتردد على مجلسه ، وفود مختلفة من بلاد فلسطين ، كان يسره كثيراً أن يسمع منهم عن أخبار بلادهم ، ودراسة أحوال معيشتهم ، مما شوقه بعد ذلك أن يقوم برحلة إلى بعض البلاد الفلسطينية فى الثانى من مارس ١٨٩٢ ، برفقة صديق له من كبار الأشراف ، فزار نابلس وسبطيه واجتمع بطائفة من السامرة ، واطلع على كتبهم ومعتقداتهم ولم يزل مقيما بيافا حتى مات الخديوى توفيق وتولى عباس الثانى ، فعفا عنه وأباح له العودة إلى مصر ولقد قال فى كتاب له لأحد أصدقائه « عزمنا على الحضور بعد العيد إن شاء الله تعـــالى فإن موسم سيدنا موسى الكليم ، يعمل فى نصف شوال ولن أحضر حتى أزوره مرة ثانية فإنه صاحب الأمر بالعفو عنى وذلك أنى عند

دخولى حضرته الشريفة أنشدته فى الحال .

رجوتك ياكليم الله حاجا　　أرجيها وقد حققت فضلك

فقل لى مثلما لك قبل أوحى　　إله الخلق قد أوتيت سؤلك

* * *

كانت الظروف التى تولى فيها عباس ظروفاً دقيقة ، فقد دعى من فينا ليتولى الحكم فى مصر فى الثامنة عشر من عمره ، والاحتلال قد أرسى قواعده فى البلاد ، وتمكن الإنجليز من وضع أيديهم على كل شىء ولكن عباساً كان وطنياً ، ولقن مبادىء الإستقلال والشعور بالوطنية وقد عزم على استرداد حقوق البلاد ، فقد كان ناقماً على جده إسماعيل إسرافه ، وعلى أبيه توفيق استسلامه ، وشعر أن شباب الأمة يجاوبه هذا الشعور .

وفى ذلك الوقت كانت فرنسا تشعر بخطئها فى سياستها الماضية التى آلت إلى ضعف نفوذها فى مصر ، فأخذت تبحث عن طريق لاسترداد بعض ما فقدت ، فرأت أن يكون من هذه السبل الإلتفاف حول عباس ، وتركيا كذلك تأسف هذا الأسف ، وتتجه هذا الإتجاه — وكل هؤلاء وهؤلاء يطالبون بالوفاء بوعد الإنجليز بالجلاء .

والحكومة الإنجليزية تلوح من طرف خفى للخديوى أن يتبع سياسة والده فى مسالمتهم .

وأخذ الخديوى عباس يتصل بالشعب ويقوى نفوذه

عن طريق الرحلات إلى المديريات ومقابلة الأعيان وزيارة المعاهد والمدارس ، كما أخذ يميل إلى مباشرة الأعمال بنفسه ، والاتصال بالمديرين ، وتكليفه المختصين كتابة التقارير عن حالة التعليم والجيش ونحو ذلك .

عند ذلك بدأت تظهر فى البلاد تيارات مختلفة ، وبدأت توضع بذور الأحزاب المختلفة وبدأت تتجلى بوضوح اتجاهات الصحف .

هذه تؤيد الحركة الوطنية ، وتناصر الميول الخديوية ، وهذه تؤيد السياسة الإنجليزية إما رغبة فى الإستفادة وإما عن عقيدة أيضاً .

وفى هذا الأفق الملبد بالسحب ظهر « عبد الله نديم » ثانية وقد سمح له الخديوى عباس بدخول مصر ، فمكث قليلا يدرس ما فاته من شئون مصر فى مدة غيابه ، ثم عزم على استئناف جهاده الصحفى وأنشأ جريدة « الأستاذ » ، وظهر العـــدد الأول منها فى ٢٢ أغسطس سنة ١٨٩٢ ، يتولى هو تحريرها ، ويتولى أخوه إدارتها ـــ وقد كتب فى أول عدد منها ، أنها لا تتعرض للسياسة العملية الإدارية ، أما السياسة من حيث هى فن ، فإنها تدخل فى موضوعها العلمى . وكانت تعد فى أول أمرها امتداداً لجريدته « التنكيت والتبكيت » من حيث موضوعها وأسلوبها ، لعنايتها بنقد العيوب الإجتماعية فى المجتمع المصرى ، ثم هى بعد ذلك

لا تنفك عن تناول المواضع السياسية والتعليق على كل ما يحدث في الأفق السياسي من أحداث .

ثم ارتفعت نغمتها شيئاً فشيئاً في الميدان السياسي ومناصرة الحركة الوطنية ، ومؤازرة الخديو عباس ، ومناهضة الإحتلال حتى بدا ذلك واضحاً في العدد الصادر في ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ فيفتتح العدد بمقال جرئ عنوان « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » وهي كلمة تتردد على لسان بعض الأوربيين ، يخاطبون بها الشرقيين ، ويقع المقال في ست وعشرين صفحة من أقوى ما يكتب ، يصف فيها حالة الغرب وحالة الشرق ووسائل الاستعمار ، ويندد بالغربيين في أساليبهم ، وبالشرقيين في غفلتهم ، ثم يدعو إلى الإلتفاف حول الخديو ومطالبته بالمحافظة على حقوقه .

واستمر على هذه النغمة في الأعداد التالية ، وكانت كتابته صدى لما يحدث من أزمات ، ففي هذه الأيام بعينها اشتد الجفاء بين الخديو عباس واللورد كرومر ، ففي ١٥ ينساير سنة ١٨٩٣ أقال الخديو مصطفى باشا فهمي منتهزاً فرصة مرضه ، وعهد إلى حسين فخري باشا في تشكيل الوزارة ، فعارض اللورد كرومر في هذا التعيين من غير أخذ رأيه — واشتد الأخذ والرد ، وأنذرت انجلترا الخديو انذاراً شديداً ، وانتهت المسألة باستقالة حسين فخري وتعيين رياض باشا حسبما أشار اللورد كرومر ، وانتشر الخبر بين

الشعب ، فأقبلت الوفود على الخديو فى ١٨ يناير تلقى الخطب فى تأييده فى موقفه ، وظهر أثر ذلك واضحاً فى الجرائد التى تناصر الحركة الوطنية .

ثم علت نغمة النديم طبقة أخرى ، فأخذ ينقد الإنجليز صراحة فى سياستهم فى الهند ومصر ويهيج الناس على المبشرين وطرق التبشير ويقول — إن السياسة تؤيدهم وتلعب ألاعيبها من ورائهم ، فتألبت الجرائد المخالفة له فى مذهبه من إنجليزية وعربية ، وحذرت منه . وشهرت به بعض الجرائد الإنجليزية ، كالتيمس والديلى نيوز وقالت أنه متعصب للدين ، مقبح لجميع أعمال الأوربيين ، وأنه ثورى مهيج ، وأيدتها المقطم ودافع عنه المؤيد والأهرام والوطن وبعض الجرائد الفرنسية ولم يأل هو جهداً فى منازلة خصومه والتشهير بهم .

وأخيراً طلب اللورد كرومر من الخديو عباس نفيه فأطاع ، ولم يستطع أن يحمى من كان يحميه وودع « الأستاذ » قراءه فى آخر عدد صدر فى ١٣ يونيو سنة ١٨٩٣ فكان عمره أقل من عام ، ولم يذكر فى وداعه السبب الحقيقى الذى من أجله أوقف عن الصدور وقال فى آخر وداعه — وما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ، والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من العظم والجلال ، وعلى هذا فإنى أودع إخوانى قائلا :

أودعكم والله يعـــلم أننى · أحب لقاكم والخلود إليكم
وما عن قلى كان الرحيل وإنما دواع تعدت فالسلام عليكم

* * *

خرج النديم إلى يافا حيث كان قبل العفو عنه ، ورتبت له الحكومة المصرية خمسة وعشرين جنيها شهرياً يعيش منها ، على شرط ألا يكتب شيئاً فى الجرائد يتصل بسياسة مصر .

وما لبث أربعة أشهر حتى وشى به الوشاة بأنه يطعن فى سياسة الدولة العثمانية ويلمز السلطان ، فصدر الأمر بإبعاده أيضاً .

فأخـذ يذرع الأرض ، لا يعرف أين يستقر ، فلا مصر تقبله ولا أى أرض من أراضى الدولة العثمانية تقبله ، ونزل الإسكندرية أياما حتى تحل مشكلته .

وقد كان كثير من الأحرار فى تركيا قد سافروا إلى أوربا ومصر ، وأنشأوا الجرائد يطالبون بالدستور ، وبإصلاح الدولة وينقدون السلطان نقداً مراً .

فكان من سياسة عبد الحميد فى بعض الأوقات ، أن يسترضى هؤلاء الناقمين ويغريهم بالإقامة فى الآستانة تحت سمعه وبصره ، مجرياً عليهم الأرزاق ، موفراً لهم أسباب الراحة والطمأنينة مع إسناد الوظائف لهم فى بعض الأحيان .

لذلك احتشد فى الآستانة عـدد كبير من أعلام القلم والبيان

والساسة ، منهم السيد جمال الدين الأفغانى وغيره من أدباء الترك وشعرائهم وساستهم . ويبدو أنه كانت هناك صلة ما بين النديم وبين المندوب السلطانى بمصر الغازى مختار باشا ، فإنه على أثر عودته إلى الإسكندرية اتصل الغازى مختار باشا بالدولة العثمانية وأوصى بأن تعامل عبد الله النديم هذه المعاملة فقبلت وسافر إلى الآستانة وصدرت الإرادة السلطانية بتعيينه مفتشاً للمطبوعات بالباب العالى بمرتب ٤٥ جنيها مجيدياً ، مضافة إلى الخمسة والعشرين التى يتقاضاها مصر — ويأبى كرمه إلا أن يصرفها جميعاً مع ما كانت تجود به مكارم عبد الحميد من الإحسانات الخاصة فى سبيل الخيرات والبر بالأهل والأقارب والأصدقاء .

وفى الآستانة عاش النديم حياة هادئة خاملة ، فقد عطلت كل مواهبه وأوقف نشاطه — والصوت العالى قد سكت ، والقلم الملتهب قد خمد ، وأصبح فى وسط يكاد يختنق منه ، لا متنفس له إلا باجتماعه بأستاذه العظيم جمال الدين الأفغانى يحادثه ويسامره — ولكن رغم هذا كله تأبى الظروف إلا أن يصطدم بشخصية عظيمة النفوذ فى بلاط السلطان عبد الحميد تلك هى شخصية أبو الهدى الصيادى .

للصيادى تاريخ عجيب ، فهو سورى من حلب ، نشأ فى فقر وإملاق ، دفعته المقادير إلى الآستانة وكان ماهراً ذكياً ، وسيم

المحيا ، قوى التأثير ، يعرف كيف يستغل الظروف ويذلل الصعاب، وسرعان ما توصل إليه الخليفة ينادمه ويسامره ، حتى أصبح أقرب المقربين له .

له أنصار وأتباع ، يأتيه المال وفراً فلا يأبه به ، فينفق عن سعة ويستدين — له أعين تأتى له بكل الأخبار ، فيستغلها أمهر الإستغلال .

لم يقف عند حد الدين والولاية والصوفية ، بل مد نفوذه إلى الشئون السياسية والإدارة العسكرية ، يتملقه الحكام ويستعطفه الكبراء فى جميع أنحاء الخلافة العثمانية . سمى « مستشار الملك » و « حامى العثمانيين » و « سيد العرب » . إستمال كثيراً من الأمراء والوجهاء والأعيان والعلماء ، فكانوا عوناً له على كل ما أراد . . . .

كانت أخلاقه مزيجاً من صفات متباينة — فهو إذ حلم، ضرب المثل فى الحلم والسماحة وسعة الصدر ، وإذا غضب ، بطش بخصمه بقسوة فائقة ، فكم له من ضحايا فى غياهب السجون ، وفى أعماق البحار وفى ذل الفقر وفى بؤس المنفى — الدنيا كلها يجب أن تأتمر بأمره ، وأن تخضع لرأيه ، فما أتى عن طريقه فهو حق ومشروع ، وما أتى عن طريق سواه فهو أفك وبهتان ، عدو كل إصلاح وخصم كل حر أبى .

هذا هو أبو الهدى الصيادى الذى لم يخش النديم صولته ولم يعش لهيبته فنازله وأطلق فيه لسانه .

وهكذا وقف الزعيم المصرى الحر أمام طاغية من طغاة عبد الحميد — وكم عودنا النديم هـــذه المساجلات بين الأحرار والطغاة ! وكأن القدر العجيب جعل من حياة النديم صفحة من مكافحة الطغاة ومحاربة الظالمين — فكما اصطدم فى مبدأ حيــاته بخليل أغا رئيس قصر والدة إسماعيل ، فهو يختم حيــاته منازلا جباراً ماردأ من أعوان السلطان عبد الحميد وكتب فيه «كتاب المسامير» . أفتن فيه فناً جديداً من فنون الهجاء المقذع الشديد واصطنع فيه أسلوبا فريداً من أساليب الهجاء ، ولو أنه انحرف فيه إلى بعض التخيلات الوضيعة — وما كان ذلك كله ، إلا تعبيراً عن صدر يحتجن فيه الغيظ ، وقلب يفور منه الغضب .

وبلغ أبا الهدى أمر هذا الكتاب المخطوط ، فأبلغ عنه السلطان عبد الحميد أن فيه تعريضاً به ، وبحث عنه طويلا من غير جدوى ، واستطاع أحد أصدقاء النديم وهو (جورج كوتشى) أن يحتفظ به ويخفيه ، ويفر به إلى مصر ثم يطبعه .

ولقد حدث له فى فترة قد تكون سابقة لحادثة تأليفه هذا الكتاب ، إن وشى به إلى السلطان ، ونسب إليه أموراً كثيرة هو منها براء وكاد الأمر يصدر بنفيه إلى بعض الولايات البعيدة ،

لولا أن الخبر وصله وهو فى إحدى ضواحى القسطنطينية ، فأرسل إلى السلطان برقية يتبرأ فيها مما اختلقه الوشاة، وختمها بهذه العبارة الحماسية :

« انك ياأمير المؤمنين القادر على الإنتقام والعقاب بلا معارض أو منازع ، ولكننا سنقف بين يدى عادل قاهر يقضى بيننا بالحق وهو خير الحاكمين » .

فأعجب السلطان بجرأته وشجاعته ، وثباته على مبادئه ، وأعجب بقوة نفسه وإبائه ، فرضى عنه ورجع عن رأيه .

وكان يحن إلى الوطن حنيناً شديداً ـ هذا الوطن الذى أحبه وأفنى فى سبيله جسمه وقواه ، موطن أحبائه وأصدقائه وذوى قرباه ، هذا الوطن الذى ألم بكل شئونه وظروفه ، فلما سافر الخديو عباس إلى القسطنطينية سنة ١٨٩٤ طلب استدعاءه ، فقابله المترجم عدة مرات ، كان يسر فيها الخديو من طلاوة أحاديثه ، وجميل أسماره ، فلما أزمع الأوبة إلى القطر سافر المترجم فى منادمته إلى مضيق الدردنيل (جناق قلعة) ، ولا نعلم ماذا كان من أحاديثه معه بشأن عودته إلى الوطن ، ولكن الأرجح أنه أفصح له بهذه الرغبة .

ولكن الدهر حرمه هذه الأمنية ، وصاحب هذا القلب المرهف ، أخذ يحترق كمداً وحزناً فى غربته ، ولم يحتمل بدنه الكليل

آثار الآلام النفسية ، فاصيب بالسل الرئوى وظل يعانى آلامه فى صبر واحتمال إلى أن حم القضاء وانتقلت روح المجاهد العظيم إلى الرفيق الأعلى ليلة الأحد ١٠ اكتوبر سنة ١٨٩٦ .

وعندما علم السلطان بذلك ، أمر بأن يكون مشهده على جيبه الخاص ، وسارت أمام نعشه فرقتان من الجيش وفرقة من الشرطة وطلبة المكتب السلطانى وغيرهم من الوجوه والكبراء ، منهم أستاذه العظيم الذى لحقه إلى الرفيق الأعلى بعد شهور قليلة ، السيد جمال الدين الأفغانى ، والسيد عبد الرحمن الجزولى وهو الذى توفى الفقيد فى بيته كإشارة الأطباء . وأودع جثمانه التراب فى مقبرة مجهولة ، بمدفن يحى أفندى فى باشكطاش .

بالأمس كان غريباً فى ديارهم

والیوم صار غريب اللحد والكفن

ولقد كانت ظروف غربته فى منفاه ومرضه الأخير ، وموته وحيداً ، دون أنيس أو رفيق أبلغ المآسى التى كتبتها يد القدر ، فالخطيب الذى حرك قلوب الجماهير ، والسمير الذى كانت أحاديثه ، مصدر غبطة وإعجاب المصريين جميعاً جماعات وأفراداً ، أمراء وفقراء ، حرم من يؤنسه فى آخر ساعات حياته ، ومن يواسيه فى أحرج أوقات مفارقته دنياه .

وكانت أمه وأخوه قد علما بمرضه ، فسافرا إليه ، ولكنهما

وصلا بعد أن حم القضاء ، واختطفه الموت ، ووجدا أن متاعه وأثاثه قد نهب ، فعادا وليس فى يدهما إلا الحزن والأسى .

وقال عنه أحمد تيمور باشا : —

« ومن تأمل بعين الإتعاظ فى تقلب الأحوال بالمترجم ، وما ذاقه من حلو الزمان ومره ، وما قاساه مدة الإختفاء ثم النفى حتى مات غريباً ، حق له العجب ، وعرف كيف يعبث الزمان بأهل الفضل من بنيه . »

ومما يؤسف له أنه لم يعرف قبره إلى اليوم ، ولم يفكر أحد فى الذهاب إلى تركيا للتنقيب عن قبره ، لتحديد مكانه وإقامة شاهد عليه ، ولو كان تم ذلك ، لكان من السهل فى العهد الحاضر ، بعد ثورة الجيش العظيمة ، أن ينقل جثمانه إلى وطنه ، ويكرم ذكره ، ويحاط بكل مظاهر الإجــــلال والإعتبار ، التى تليق بتاريخ جهاده المجيد .

٣ — صورته الجسمانية والنفسية

كان متوسط القامة نحيل الجسم ، حنطى اللون ضعيف البدن ، على وجهه تبدو علائم التعب والكد ، وكان وجهه إلى الدمامة أقرب . وقد رسمت الآلام والأشجان خطوطها على صفحته وربما كان لضعف جسمه ، وكثرة علله ، موت أطفاله جميعاً فى طفولتهم ، فقد

رزق قبل الإستخفاء بحمد وعثمان وإلياس وفاطمة وعائشة وسكينة وخديجة ، كما رزق أيام الإستخفاء بحفصة وريا وكلهم لم يعش طويلا ومع هذا فهو على مرضه — قد بذ أقوياء الجسم ، فى نشاطه الدائب ، وشدة إقباله على أى عمل يوكل إليه ، لا يعتريه كلال ولا يصيبه ملل . يود أن يخلد إسمه بالعمل بعد أن حرم تخليد إسمه بالولد .

ومع أنه لم يكن وسيم المظهر ، فإن طلاقة لسانه وخفة روحه وسرعة بديهته قد غطى على قبح منظره ، فأحبه الناس وأصبح نديم الملوك والعظماء .

كان فى حياة النديم شىء من التهريج ، فليس هو جاد فى كل أمر ، فاتسمت بعض تصرفاته بالبساطة ، حتى أنه بعد ما كان يرتدى فى أول أمره الثياب الإفرنجية ، غدا بعد إختفائه يظهر مرتدياً الجبة والقفطان ، متعمما بعمامة خضراء ، مدعياً أنه شريف إدريسى ينتسب إلى الحسن بن على ، ولم تكن دعواه الأخيرة على جانب كبير من الصحة . وما دفعه إلى ذلك ، سوى معرفته أخلاق الناس وطباعهم ، وتمجيدهم ذوى الأنساب العريقة والثروات العريضة ، وقد كان عاطلا من هذا وذاك .

كان من دعائم شهرته قوة لسنه وذكائه . قال عنه المرحوم أحمد تيمور باشا (كان شهى الحديث حلو الفكاهة ، إذا أوجز

ود المحدث أنه لم يوجز ، لقيته مرة فى آخر إقاماته بمصر ، فرأيت رجلا فى ذكاء إياس وفصاحة سحبان وقبح الجاحظ ، أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا) .

وقال عنه المرحوم جورجى زيدان بك :

(أما أخلاقه فكان باراً بوالديه وذوى قرابته وقصاده ، ولو لم يكن يعرفهم ، فما أقرض شيئاً وطالب به ، ولا رد يوماً سائلا ، ولا خضع لعظيم قط ، وإنما كان يلين ويتواضع لصغار الناس وأواسطهم ، وكان ذكياً فطناً قوى الحافظة ، فصيحاً جريئاً شاعراً مطبوعاً وكاتباً ثائراً) .

وقال عنه الزعيم العظيم جمال الدين الأفغانى :

(أنه ما رأى مثل النديم طوال حياته ، فى توقد الذهن وصفاء القريحة ، وشدة العارضة ، ووضوح الدليل ووضع الألفاظ وضعاً محكما بإزاء معانيها ، إذا خطب أو كتب) .

وكان كريماً بالناس من كافة الطبقات ، براً بالفقراء لا يضن عليهم بماله أو جهده ، وفياً شهماً ، إذا أقرض أحداً لا يطالبه بقرضه ، غير مقتر ، فكلما أتاه من المال أنفقه على الناس ، وكان طاهر القلب ، عف الضمير وقف قلمه ولسانه للحث على الأخلاق

والفضائل الوطنية ، ونشر على الناس عن الرذائل المتفشية فيهم بكل جرأة وصراحة .

وقد اتسع صدره للضعفاء والمظلومين من أبناء الوطن ، فكلأهم بعنايته ، وأخفض لهم جناحه ، وأوسع لهم مجال عطفه وحدبه ، ولكنه تميز غضباً ومقتاً من الظالمين والطغاة ، فإذا غضب على أحدهم ، فهو يندفع لمساجلته شاهراً سنان قلمه ، موجهاً كل قوته نحوه ، مشهراً به ، ناشراً صفحات ظلمه على الملأ ، فى غير ماخوف ولا تردد .

كان لطيف المحاضرة ، فصيح الكلام ، فاذا تكلم ، أنصتت اليه الآذان ، وشربت حديثه العذب كل الطباع ، إصطنع كل أساليب الأحاديث فى عهده ، ومرن عليها وأتقنها ، فلو تحدث مع العامة ومحدودى الثقافة ، إستطاع أن يؤثر فيهم ويرشدهم ويوجههم ، وإذا تحدث إلى كبار الناس من الساسة ، وزعماء الرأى ، أرغمهم على الإعجاب به ، بما أوتيه من ذخائر المعانى ، وناصع البراهين ، وقوة الأدلة ، وكذلك أتقن الحديث بجميع لهجات اللغة العربية فى أجزاء القطر وفى بلاد العروبة جمعاء ، وقد أعانه ذلك كثيراً فى وقت استخفائه ، فقد ادعى يوما أنه عالم يمنى ، وكان يقيم بالقرشية وذاعت شهرته فى العلم والأدب حتى بلغت القاهرة ، فأرسل إليه رياض باشا رئيس الوزراء فى ذلك الوقت « الشيخ سعد زغلول »

(سعد زغلول باشا رئيس الوفد السابق) ليسأله عن معنى مثل ورد ذكره فى بعض الجرائد ولم يفهم معناه ، فقابله على أنه عالم يمنى وفسره له .

تقلب فى حياته على صور مختلفة ، وتردد ذكره بين الناس - أثناء استخفائه - محوطاً بهالات من الأسرار والألغاز ، فهو فى أول حياته ، شخص فقير مغمور ، يختلط بالسوقة وغمار الناس ، ثم بعدها يظهر كأديب ملحوظ ، ذا قدرة فى صناعة اللسان ، ثم يوما يشتغل كمعلم ترمقه الأنظار بالتجلة والاعتبار ، ثم هو بعد ذلك صحفى مشهور وخطيب عظيم وموجه للرأى العام ، ثم فجأة يختفى فاذا هو أسطورة من الأساطير تختلف بأسبابه الظنون وتختلط عن شخصيته الأوهام بالحقائق ، وإلى القارىء القصة الآتية .

ذكر أحمد سمير فى كتابه سلافة النديم - أن مصطفى فتحى باشا مدير الغربية فى ذلك العهد قابل « عبد الله النديم » ببلدة كوم الطويل ، على أنه شيخ مغربى ، يتسمى باسم معين ، وتكلما طويلا فقال هذا لولا علمى بأن النديم مات وانقضت أيامه ، لقلت أنه هو هذا الرجل بعينه ولكن رجل من لا شبيه له » .

وهكذا اعتقد بعض الناس أنه مات مثل مدير الغربية المذكور ، ومنهم من ظن أنه هرب وأقام فى ليبيا بمساعدة البدو القاطنين فى غرب الدلتا ، ومنهم من ظن أنه ذهب لأوربا وأقام فى باريس

ونشر فيها مقالة أتى فيها على ذكر الحرب العرابية فندد بالمصريين ، ونسب إليهم الضعف والجبن ، ومن زاعم أنه أتى السودان ، واتصل بالمهدى وصار له نديما ـ وقال قوم أنه سارع فى السفر إلى «سيلان» للاجتماع بعرابى ـ وقد ذكرت هذه الإشاعات فى الجرائد السيارة من مصرية وأجنبية .

وقد لا يبدو فى ذلك شىء من البطولة ، وإن كان يدل حتما على الشجاعة والجرأة والذكاء ، لأن النديم يعلم أنه لو أظهر نفسه ، لكان مصيره النفى إلى سيلان كما نفى زعماء الثورة الآخرون .

وقد كان محبوبا من الشعب ، كل من ذاق حديثه استعذب أن يدوم استماعه له ولو طال الوقت ، لا تفارقه بسمته العذبة ولا شعاعة عينيه المتألقتين ـ ينساب حديثه حلواً هادئاً كالجدول الرقراق ، يختال بين الزروع والأزهار ، ذا صوت جميل الوقع حسن الجرس .

وإذا ما علا منصة الخطابة ووقف بين الجماهير ، فإن لصوته هديراً كالموج ، وقصفاً كالرعد لا سيما إذا ثار وزجر ، وأكثر ما تكون ثورته على أعداء الشعب من الحكام والظالمين ، وعلى فوضى الجهل والمساوىء الاجتماعية ـ ثم يختلف صوته فى الخطابة كلما تغيرت اختلاجات معانيه ، فهو إذا هدأ فإن صوته كعزيف

الريح الرخاء حينما تهب هبوباً خفيفاً فتحرك الغصون والأشجار أو هو كلحن هادىء ، قوى الرنين شديد الحنين ، كان خطيب مصر فى أعنف مرحلة من مراحل تاريخها الطويل ، مرحلة الثورة على الاستعباد والظلم ، فكانت لخطابته أعظم الأثر فى تنبيه الشعب .

لم تفارقه حلاوة حديثه فى كل ظروف حياته ، حتى أثناء هربه حين كان مشرداً هائماً يطوف الفيافى والقرى، عابراً بالدساكر والمزارع ، فكان الناس يندهشون من حديثه الذى يشبه حديث النديم وهم يعتقدون أنه شخص آخر ثم يقولون « لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . سبحانك اللهم على قدرتك لقد مات النديم وذهب إلى رحمة الله ولكن هذا الشخص يشبهه فى كل شىء » .

وفى عهد الثورة العرابية انقلبت مصر مسرحا للخطباء فى كل مجتمع وناد حتى فى المساجد ، ولم يبق مجلس للسمر أو إحتفال بعرس أو غيره إلا اقتحمه الخطباء ، واعتلوا منصة المغنيين بعد إقصائهم عنها ، حتى لقد اشتهر أن محمد عثمان المغنى المشهور إذا سئل — فى أى فرح تغنى الليلة — أجاب « فى الفرح الفلانى مع عبدالله النديم » فكان النديم جلوة المجتمعات وبهجة المنتديات كأنما لم يكتف الناس لإطرابهم فى أفراحهم بالموسيقى والمغنى والدفاف والزمار ، ولكن كان فى خطب النديم وسلاسة عباراتها ، وروعة معانيها

ونفاذ تأثيرها فى إلهاب شعور السامعين أبلغ غذاء روحى تسمو به النفوس إلى ذوى الإحساس الوطنى الرفيع .

ونحن إذا شئنا أن نستكمل الصورة النفسية لذلك العبقرى ، قلنا إن الرجل كان رقيق القلب صاحب نفس متألمة معذبة ، فرقة قلبه تتمثل فى إنسانيته وتسيل على شباة قلمه ، فإذا قرأت كتاباته فى هذه الألوان مال قلبك إليه وأحببته وانعقدت بين قلبك وقلبه مودة أواصرها من نسيج السماء .

إقرأ كتاباته عن المعذبين ، سواء فى معسكرات التسخير فى مزارع الخديوى والأمراء أو عن المظلومين بأى نوع من الظلم ، أو المحرومين من الحرية الجميلة ، حرية الأخلاق والفضائل ، الذين يعيشون كما تعيش السوائم بلا حس ولا فكر ، أو الذين يرتعون فى نعيم الجهالة وغياهب الوخامة وبؤر الأدمان والمخدرات ، تحس أن الرجل يكتب بقلبه ومن قطع نفسه ، ومن زفرات صدره ، وأن معانيه تفيض أسى ولوعة وحسرة .

الفصل الثالث

آثار النديم

١ — أثره فى التعليم

مقدمة :

لم يوجه النديم حياته فى أولها نحو وجهة معينة ، ولما احترف فى أول أمره حرفة إرسال البرقيات ، وانتقل منها إلى مكتب البرق بالقصر العالى ، مقر أم الخديو إسماعيل ، اصطدم مع خليل أغا صاحب السطوة والنفوذ ففصله من عمله ، ولم يجد النديم عملا يعيش من كسبه فهام فى مسالك الأرض بحثاً عن الرزق ، وأخيراً حط رحاله بمديرية الدقهلية ببلدة بداوى حيث استخدمه الشيخ أبى سعدة عمدتها ، فى تعليم أولاده ، وكان هذا أول عهد النديم بالتعليم — وهنا يجب أن نتساءل . . هل كان النديم قد أعد نفسه لهذه الوظيفة أو تخرج من معهد علمى معين — أو حصل على مؤهل ثقافى يساعده على ذلك . . . الجواب لا . ولكن كان للنديم من ذكائه ومواهبه الخاصة ، ما أعانه على القيام بعمله الجديد

على أحسن وجه . . . ولكنه لم يستمر فى تعليم أبناء العمدة بعد ذلك ، لحدوث سوء تفاهم مع الأخير وعدم حصوله على أجر تعليمه فاختصم ، معه ، ثم انتصف له شاهين باشا كنج مفتش الوجه البحرى ، وساعده على الحصول على حقوقه .

ثم مرت الأيام والنديم يجوب القرى والأرياف ، سميراً للأغنياء والأعيان ، وكان آخر عمل إدارى اشتغل به ، هو وكيل لأحد كبار التجار ، المدعو التوتونجى بك[1] ثم عاد للاسكندرية مسقط رأسه سنة ١٨٧٩ ولم نعلم بالضبط الدوافع الأساسية التى دفعته للعودة ولكن من المسلم به ، أن هناك من أصدقائه من أشار عليه بتجربة مواهبه الأدبية فى تحرير الصحف[2] لأنه بمجرد وصوله ، اشتغل بتحرير المقالات باللغة العربية السليمة ، الخالية من السجع ، البعيدة عن التعقيد ، بما حبب فيها القراء ، وساعد على شهرته ، ثم امتد عمله بالتحرير إلى الإشتراك فى الندوات السياسية ، التى كانت تفكر فى أحوال البلاد السياسية والمشاكل الخطيرة التى تعانيها ، وكانت بوحى السيد جمال الدين الأفغانى ، ثم اتخذت هذه الندوات صفة الجمعية السياسية بعد ذلك ، فصارت تعرف باسم جمعية مصر للفتاة ،

(١) مشاهير القرن الثالث عشر لأحمد باشا تيمور .

(٢) من هذه الصحف جريدة النجاح والتجارة ومصر .

وكانت تعقد جلساتها بصفة سرية ، وكان من أعضائها جمال الدين الأفغانى وأديب إسحق وسليم نقاش وعبد الله نديم ونقولا توما الذى كان من أصحاب الصحف فى ذلك العهد ، ثم أصدرت هذه الجمعية السياسية جريدة تعبر عنها وهى جريدة (مصر الفتـــاة)[1] وقد ظهرت فى أواخر عهد إسماعيل وكان محررا تلك الجريدة هما أديب إسحق وسليم نقاش يكتبان بإيعاز جمال الدين الأفغانى لمقاومة مظالم إسماعيل ، وكانا يصدرانها باللغتين العربية والفرنسية ليوهما الخديو أنها لسان حال جمعية كبرى من الإفرنج والوطنيين تسعى فى خلعه فكان إسماعيل يخشاها ويبحث عن أعضائها فلا يهتدى إليهم[2] .

الجمعية الخيرية الإسلامية (الأولى) تأسست سنة ١٨٧٨ [3]

ثم اتجهت هذه الجمعية السياسية الأولى إلى تغيير ظروفها من جمعية سرية إلى جمعية علنية ، لها أغراض عملية ظاهرة ، فتسمت باسم الجمعية الخيرية الإسلامية وآلت على نفسها متابعة أهدافها الأولى من السعى فى سبيل التحرر من نير الظلم والاستبداد ومقاومة استئثار الأجانب بمرافق البلاد الاقتصادية ثم عولت

(١) اشتهر باسم جريدة مصر وجريدة أخرى إسمها التجارة .
(٢) جورجى زيدان — تاريخ أداب اللغة العربية جـ ٤
(٣) الجمعية المذكورة غير الجمعية الخيرية الإسلامية الحالية .

على تنفيذ برنامج إنشائى قومى ، فاستحدثت غرضاً جديداً لها وهو فتح المدارس لتعليم أبناء الشعب وتهذيب أخلاقهم فكانت بذلك أول جمعية خيرية تنشـــأ لغرض فتح المدارس الحرة وإرساء قواعد التعليم الحر فى البلاد ، وكانت توالى نشاطها السياسى ، فكانت دارها بالمساء بمثابة ندوة كبيرة للخطابة السياسية والعلمية . وقد اختارت الجمعية عبد الله النديم ليكون مديراً لهذه المدرسة ، وقد شجعت الحكومة هذه الجمعية الناشئة فى غرضها العظيم فصادقت على قانون تأسيسها ، وأخضعت المدرسة لإشرافها وتفتيشها ، وكان من أعضاء هذه الجمعية العاملين حسن منصور والدكتور حسن سرى ومحمد شكرى معاون ضبطية إسكندرية والحاج أمين الكيال والشيخ محيى الدين البنهانى ومحمود واصف والشيخ على ضيف وحسن المصرى وعبد المجيد عمر شويطر ورستم بك العلايلى وأحمد نبيه ومحمد باشا الناضورى ومحمد بك العدل وعبد القادر الغريانى بك — وكانت تشرف على المدرسة لجنة من أعيان الإسكندرية تحت رعاية الخديو توفيق ورئاسة محافظ الإسكندرية (وذلك من مذكرات المرحوم حفنى بك ناصف) وقد حصل شقاق فى هذه اللجنة فاستقال المحافظ من إدارتها وتولاها آخر . ومكثت المدرسة تؤدى رسالتها ، والجمعية قائمة تباشرها ، حتى انفرط عقدها حين بدأت الثورة العرابية .

نبذة عن التعليم فى عهد إسماعيل :

لا بد أن نشير هنا إلى أسلوب التعليم فى عهد إسماعيل ، حتى نستطيع أن نحدد أهداف السياسية الجديدة التى اختطها النديم لمدرسته وندرك مميزات هذه السياسة .

كان عدد المدارس التابعة لوزارة المعارف فى عهد إسماعيل — ١٢ مدرسة ما بين عالية وثانوية وإبتدائيـــة — فقد جاء فى خطبة العرش التى ألقاها الخديو إسماعيل فى مجلس شورى النواب فى ٢٨ يناير سنة ١٨٦٩ أن المدارس التابعة للحكومة فى جميع القطر هى :

بالقاهرة — مدرسة المبتديان والمدرسة التجهيزية والمهندسخانة والأبنية والإدارة والألسن (الحقوق) والمساحة والمحاسبة والعمليات (الفنون والصنايع ومدرسة الرسم) .

بالإسكندرية — المدرسة الابتدائية والمدرسة التجهيزية والمدرسة البحرية .

بالأقاليم — مدرسة طنطا ومدرسة أسيوط .

نظام التعليم بمدارس الحكومة :

كان التعليم فى مدارس الحكومة فى مبدأ الأمر داخلياً كله على نفقتها ، مع المأكل والملبس — وكانت مواد الدراسة —

التركية والفرنسية والانجليزية والألمانية والعربى ثم المواد العلمية الأخرى مثل الحساب والجغرافية والتاريخ والهندسة والرسم والخط العربى والخط الأفرنكى . . . الخ — وكان أولو الأمر يهتمون بتعليم اللغة التركية بجانب تعليم اللغة العربية — وكان الإشراف العام على الطلبة من حيث دخولهم وانتقالهم داخل المدرسة وخارجها ذا صبغة عسكرية ، فكان ضباط المدارس يطبقون عليهم بما هو أشبه بالنظام العسكرى كما كان هناك بعض البروجية من السودانيين ، للمساعدة فى تنظيم الخطوط على إيقاع البروجى أثناء السير .

ويفهم من هذا أن النظام الذى كان يطبق على الطلبة هو أبعد ما يكون ، عن المنهج القويم للتعليم الصحيح والتربية ، بل هو نظام جاف قاتم ، لا يكون مواطنين صالحين قد تشبعوا بحب وطنهم وتهذبوا بالآداب القويمة المبنية على الحب لا على الرهبة — وقد زاد الطين بلة ما فرض من أساليب للعقاب فى غاية القسوة والعسف ، فكان المتبع إما إعطاءهم الخبز دون إدام ، أو الجثو على الركبتين أو استعمال السوط (الزخمة) من الجلد لضرب الطلبة على أرجلهم بواسطة (الفلقة) لشد أرجلهم بها ، وكذلك الحبس فى الزنزانة بالمدرسة وهى حجرة مظلمة بها منفذ بسيط .

ثم أنشئت بعد ذلك الأقسام الخارجية بالمدارس ، وفرضت

المصروفات فى أول الأمر على بعض التلاميذ بدون نظام معين بل كانت بحسب مقدرة ولى أمر الطالب المالية ، وبدئ بتنفيذ ذلك النظام فى مدرسة المبتديان والمدرسة التجهيزية .

* * *

بعد أن استرجعنا من الماضى صورة الجو المدرسى فى ذلك العهد ، سنرى ماذا فعل ذلك المعلم الجديد ، الذى لم تخرجه جامعة ولم يتعلم فى أى مدرسة نظامية فى حياته . ذلك المعلم الفريد فى تاريخ مصر بل فى التاريخ بأسره — لأن النظام الذى أقامه فى التعليم منذ ثلاث أرباع قرن يتفق مع أحدث مبادئ التربية الحديثة المعمول بها فى أحدث المدارس فى العالم .

١ — تولى عبد الله النديم إدارة المدرسة فغير النمط الجاف الذى كانت تسير عليه الحكومة إذ ذاك — وأضاف إلى تعليم مبادىء العلوم ، المواد التى تنبت فى النشء روح الوطنية والشعور القوى من تربية وأخلاق ودين وتاريخ .

٢ — كان يقوم هو بتعليم الإنشاء العربى والأدب :

٣ — إستحدث فى هذه المدرسة مادتى التمثيل والخطابة علما وعملا .

٤ — كان يعلم كثيراً من أبناء الفقراء والأيتام بدون مصاريف .

٥ — كان يعنى بتشجيع الطلبة وشحذ ملكاتهم وتحميسهم

فى دراستهم بإثابتهم بالجوائز ، وكثيراً ما كان يشتريها لهم من جيبه الخاص لشدة اهتمامه وحرصه على منفعتهم .

ولقد بلغت المدرسة شهرة بعيدة ، وكانت أول مدرسة لها برنامج علمى وطنى . وكانت أول مدرسة تعلم الخطابة تعليما على أسس دقيقة، وتربى فى الطلبة روح الإعتداد بالذات والثقة بالنفس، وتساعد على تكوين المواطن الصالح ، الذى يحب لغته ويتقنها — وكان مراد النديم من تنشئة الناشئة ، وتمرينهم على أساليب الخطابة ، والجدل لبث روح النخوة ، والغيرة فى أفكارهم ، وليتمكنوا إذا بلغوا مبلغ الرجال ، من أداء مقاصدهم ، بلا حياء ولا خجل ، ولتقوى فى نفوسهم الثقة ، فيكافحوا فى حياتهم بعزيمة قوية ، وإرادة ذات مضاء ، لا يرهبون أحداً ، مهما كان شأنه .

وكانت الأمة فى أشد الحاجة إلى ذلك الأسلوب الجديد من التعليم لسبب ما قضى به الحكام على أذهانها ، من الجبن والخمول ، والضعف والاستكانة ، وقصور الناس عن التعبير الصادق الصريح عن آرائهم ، ضعفاً ورهبة ، حتى قال احد الكتاب عن ذلك العصر (أن أعظم عظيم كان لا يقدر أن يحدث نفسه فى سرير نومه بشىء من دواعى الإصلاح ، خوفاً من الطيف ، أن ينم عليه كأنما كل مصرى كان هذا المقصد) كما يقول أبو الطيب — (إذا رأى غير شىء ظنه رجلا) .

والتربية الحديثة تعمل على إزالة الخوف من التلميذ الصغير منذ طفولته ، منعاً من تكوين العقد النفسية فى هذا الطور من حياته العقلية ، لأنها إذا تكونت جعلت سماء حياته فى المستقبل ملبدة بالمتاعب والأمراض النفسية ووقفت حائلا بينه وبين ما يرجوه من تقدم فكرى وعلمى ، وأوقفت سير ملكاته وأخمدت مواهبه ووقفت عقبة كأداء أمام طموحه وتحقيق مستقبله .

ولقد رأينا كيف كانت تسلك المدارس الحكومية مع طلبتها فى إخضاعهم لنظم قاسية جافة ، وقتل روح الكرامة والعزة فيهم وجعلهم آلات صماء بلا حس ولا تفكير .

وكان المدرس فى المدرسة ، بأساليبه فى معاملة الطلبة أبعد ما يكون عن المربى الصالح ، الأمين على ما وكل إليه ، الذى يعمل على تهيئة الجو الصالح لتلميذه ، وتعليمه الأخلاق ، والمثل العالية بالتعويد ، والقدوة ، والترغيب ، لا بالقوة والعسف والتهديد .

فكان النديم بذلك من رواد التعليم فى مصر ، لأنه مهد للأسلوب التربوى الصحيح ، وحق لرجال التربية فى مصر أن يكرموا ذكرى هذا الزعيم الذى علم أبناء مصر على أحدث نمط تعمل على أساسه المدارس الآن فى العالم أجمع .

وكان ينتهز كل فرصة لإقامة الحفلات ليخطب فيها . ويقتدى به تلاميذه ، فيخطبوا أيضاً إما من إنشائهم الخاص ، أو من

تحضير النديم ، أو ارتجالا ، وذلك بعد تمرينه إياهم وتصليحه أخطاءهم ، وإرشادهم ، فأسس بذلك نخبة من الطلبة ، يحسنون التحرير ويحسنون القول .

وقد عزل الخديو إسماعيل أثناء عمل النديم بالمدرسة ، وحل محله الخديو توفيق ، فاتصل النديم به ، واستزاره المدرسة فزارها واغتنم فرصة زيارته وطلب منه تشجيعاً آخر وهى زيارة ولى العهد وشقيقه للمدرسة ، فزارا المدرسة . وأعد حفلة ممتازة بمناسبة قدومهما وتقدم نفر من الطلبة ، فوقفوا بين أيديهما وألقوا ثمانية وعشرين مقالا مختصراً كما سبق ذكره نظما ونثراً أغلبها من إنشاء المترجم . وكان أيضاً يعد حفلات عامة ، فى بهرة المدرسة ، يحضرها كبار القوم وسراتهم ، فيسمعون المطرب والمغرب من تلاميذه ، وهكذا كون جيلا من الرجال ، يستطيع أن يعبر عن رأيه بصراحة غير هياب — وكان من تلاميذه (مصطفى باشا ماهر) .

جمعية التمثيل :

تعد هذه الجمعية أقدم جمعية فى مصر ، أنشأها النديم فى مدرسته لتدريس التمثيل علما وعملا ، من درس الروايات ، وطرق الإلقاء والفنون المختلفة المتصلة بالتمثيل ، وكانت هذه الجمعية تعليمية مدرسية

وجاءت بعدها جمعيات مختلفة للغواة ، مثل جمعية البر الأدبى أنشئت بالإسكندرية ، وشركة التمثيل الأدبى ، وجمعية المعارف الأدبية سنة ١٩٠٠ ثم جمعية أنصار التمثيل والسينما وهى آخر وأهم جمعية أنشئت فى القاهرة سنة ١٩١٤ وما زالت حتى الآن .

وهكذا يجلى النديم فى ميدان آخر وهو التمثيل فى وقت ما كانت المدارس تعلم عن التمثيل شيئاً ، فعلم الطلبة أصوله وكان أول أستاذ له ، وحق لتاريخ المسرح المصرى أن يخلد فى سطوره الخالدة إسم أول مدرس أدخل مادة التمثيل فى الدراسة واستعمل المسرح ، فى الأغراض الوطنية والأدبية فمثل النديم مع طلبته روايتين أدبيتين وهما « الوطن وطابع التوفيق » و «العرب» فى (تياترو زيزينيا) حضرهما الخديو توفيق ، وكانت الروايتان من تأليفه وإخراجه وتمثيله — فبلغ بهما إلى ذرى الشهرة ومنح الخديو توفيق الجمعية مائة جنيهاً تبرعاً وتقديراً لها .

وهواية التمثيل هواية نافعة كل النفع للطلبة ، وتعمل وزارة التربيه والتعليم الآن على نشرها بمدارسها — فهى عدا أنها تصقل مواهبهم ، وتعودهم الشجاعة والتعبير الصحيح السليم وتزيدهم مراناً بعلوم مختلفة لها صلة بالتمثيل ، فهى تشبع طموحهم وغرائزهم المختلفة

وتحل كثيراً من مشاكلهم النفسية ، وتدفعهم إلى مجال واسع لإظهار نبوغهم وملكاتهم .

يتضح مما سبق أن النديم كان رائداً من رواد التربية العلمية السليمة فقد ألهمته عبقريته وذكاءه ، أن يستحدث هذه الأبواب الجديدة فى مدرسته مما جعل نظام تعليمه يسبق الجيل الذى ظهر فيه .

وإننا وإن لم نطلع على يوميات للنديم ، كتب فيها مذكراته أثناء عمله بالتعليم ولكننا نميل إلى الإعتقاد ، أنه كان محبوبا بين تلاميذه لأن الذى يستطيع أن يخلق من طلبه نشأوا فى بيئات فقيرة المادة والتفكير، خطباء مصاقع وممثلين نابهين ، لا بد وإنه استطاع أن يستأثر بتفكيرهم وميلهم له ، حتى أنهم أجادوا كلما تعلموه عن طريقه .

وأخيراً حدث نزاع بينه وبين أعضاء الجمعية ، فلقد عز عليهم توفيقه ونجاحه وذيوع صيته فى المدرسة ، وألصقوا به تهماً هو منها براء ، ولكن حقدهم له جعلهم يختلقون له أسباباً مختلفة فترك المدرسة واستقال من إدارتها وكذلك من عضوية الجمعية ، وقلبه يتفصد لوعة وأسى على عمل كان يود لو طال زمانه به لا رغبة فى مادة ، ولا طمعاً فى شهوة ، إنما لكى يؤدى لوطنه خدمة خالصة

ترضى ضميره الوطنى ، وروحه العالية ، و نفسه الكبيرة . ومواهبه التربوية ، التى كشفت عن نفسها إبان ممارسته فن التعليم .

حقاً أن العباقرة لا تنقصهم مدرسة ولا يعوزهم كتاب أو مرشد ، ولو لم يكن ذلك الرجل عبقرياً ، لما نجح فى التعليم أبلغ نجاح ، ولما وفق فى إدارته أبلغ توفيق ، وهو لم يتلق الإرشاد على فلاسفة فى التربية ، ولا علماء فى التعليم . وكتب بعد ذلك سطوراً هى من فلذات قلبه ، وقطع نفسه ، يظهر فيها أسفه على ترك عمل أحبه ، وأطفال كان بمثابة أب لهم ، وكم كان يود لو أتيحت له الفرصة لكى يستمر فى تعليمهم ، وتقديمهم هدية للوطن .

كتب فى عدد ٧ ص ١٠٤ من مجلة التنكيت والتبكيت الصادر فى ١٨٨١/٧/٢٤ (إياك أعنى يا نفسى فاسمعى وعى) .

نديم : إسمعى إسمعى إن قيل فيك إنك خبيثة تحذرين من القبيح وتأتينه ، وتأمرين بالجميل ولا تتبعينه — هل أنت راضية بذلك ؟

نفسه : نعم راضية فإن العقلاء يعرفون سيرى ويحفظون مشربى ، فلا يغرنى جاهل يرى السهام مفوقة إليه فيرمينى بما ابتلى به ، وإن ملأ بمفترياته القهاوى والطرقات .

نديم : إن قيل فيك إنك ضالة مضلة لا تعرفين الدين ولا تعترفين بأهل الفضل فهل أنت راضية .

نفسه : راضية لأن بنات أفكارى وأبناء أدبى تكذب من يقول ذلك ، من لا يعرف إلا ضروريات حياته التى لا يجهلها إلا البهيم ، وكسبي ما أنادى به الآن ، من الآداب وروايته عن أهل الفضل يوجب على الاعتراف بفضلهم .

نديم : إن قيل فيك إنك لا تؤمنين على دراهم ولا دينار لطمع خلقت به ، وشره شديد فهل أنت راضية .

نفسه : نعم راضية ، فإنى أعذر القائل لعلى أن الفقير لو خلق من الأمانة ، ونفخت فيه من روح العفة ، ما ائتمن على درهم ولا دينار لتوهم احتياجه إليها ، ولو كون الغنى من ضد ما كون منه الفقير، وسلب من النقود كثيراً لخرست الألسن ، وإن تكلمت وجد له ألف مدافع لتوهم غناه عنها ــ وهذا غريزى فى النفوس فلا أتكدر منه على أنى لست خازنة ولا أمينة بيت مال .

نديم : إن قيل فيك إنك تسعين خلف مقصد سيء وافترى عليك مفتريات وأكاذيب ربما أغضبت عليك مواليك إن لم تعدمك ، فهل أنت راضية .

نفسه : نعم راضية بقيت أو عدمت ، فسأكون سيرة يرويها الحاضر للآتى ولم تلبث خفايا الأمور حتى تظهر فيكون سوء مكافأتى على اجتهادى عبرة فى تاريخ حياتى .

نديم : إن قيل عنك أنك لم تقصدى من عملك إلا الشهرة ،

التى توصلك لرتبة تناليها أو رزق تتمتعين به لتكونى من ذوى اليسار والنعم الجليلة فهل أنت راضية .

نفسه : نعم راضية . . فما الإنسان إلا قلبه ولسانه ، بين يدى كل إنسان يقلبهما كيف يشاء ، فما وجده فيهما حكم عليه به ، وأما اللذة الموجودة بالشهرة فإنها ظاهرة فى سرير نومى وسترتى الوحيدة ، وأنعم بها من لذة لو دامت ، فما النعمة إلا ما يحفظك من شرب ماء اللئيم وأكل عيش المجرمين .

نديم : لك الله يجزيك على أتعابك ، التى أذهبت بها قوتى وشيبت رأسى ، ولحيتى ، وقد أجبتك لهذا الطلب المحمود الظاهر ، والسيىء الباطن ، فقد كنت أود صرف الباقى من حياتى ، فى طفل أربيه وعقل أنوره . وروح أستخلصه من الجهالة ، ولكن جهد المقل دموعه ، وما على من ترك عملى لأهل الخير وكرام الناس فانتظرى أسبوعاً أو أسبوعين وانتظرينى فإن أنا صرت فى ثانى العالمين فقد أرحتك من الأتعاب ، وإن ظهرت فى طور جديد حملتك على أخطار وأتعاب ، يكون لك من الله الحسنى ، ودعينى من الخلق بالسعى اليوم ، والجزاء من عند من لا يضيع عمل عامل جل شأنه .

لعل فى هذه المناجاة الرائعة ، التى يناجى بها النديم نفسه ، ويظهر الناس فيها على مكنون صدره ، وأنات قلبه ، ويعرض لهم

ما قاسى من ظلم، وجحود ونكران، وعدم اعتراف بالجميل مما يضيف روعة أخرى إلى روائع مناقبه وأخلاقه.

فلقد نراه حساده برذائل كثيرة، ولكنه تقبلها صابراً هادئاً مرتاحاً لأن ضميره لا يؤنبه على شيء أخلص فيه وهو بعد ذلك واسع الصدر يعذر الناس — والعاقل من عذر غيره — ثم هو قانع بعيشه وكفافه، لا يبتغي مزيداً، وكان يتمنى لو بقي في العمل الذي أحبه مع الأبناء الذين وثقت بينه وبينهم العاطفة صلاتها، الذين كان يعمل لخيرهم، ولا يضن عليهم بجهد مهما بلغ.

وقد ذكر في مقالة له في مجلة التنكيت والتبكيت أن حوالى نصف طلبة مدرسته، البالغ عددهم ٤٨٠ طالباً، كان يتلقى العلم بدون مصروفات، لأنهم ما بين فقير لا يقوى على الدفع، أو يتيم لا يجد من يعاونه.

وقد رتبت له إدارة الجمعية مرتباً عن إدارته المدرسة مبلغ ٢٠ جنيهاً فلم يقبل منها إلا ستة جنيهات وبعد ذلك زيد المرتب إلى عشرة جنيهات ثم لما مثل رواية الوطن وطالع التوفيق، وحضرها الخديو توفيق، كان قد انفق على إعطائه، ربع إيراد الحفلة لأنها من مجهوده الشخصى.

الثقافة القومية.

---

١ — اللغة العربية: لم ينثن النديم لحظة عن الدعوة للاهتمام

باللغة العربية واستعمالها فى كافة المعاملات الحكومية والاقتصادية.
وقد هاله أن طبقة المثقفين فى عهده تتفاخر باستعمال اللغات الأجنبية فى أحاديثها مفضلة إياها عن اللغة القومية. وكان ذلك من آثار موجة التقليد الجارفة التى أصابت البلاد فى عهده. كما دعا وزارة المعارف إلى الإهتمام بتعليم اللغة العربية وتحسين أساليب تدريسها بالدرجة التى تهتم بها بتعليم اللغات الأجنبية. كما دعا الأمة إلى الإكثار من الجمعيات الأهلية لإنشاء المدارس الوطنية التى تجعل من أهم برامجها تحسين طرق تدريس اللغة العربية والتربية الوطنية والأخلاق والدين والتاريخ الوطنى.

٢ ــ مجمع اللغة العربية.. دعا فى ١٨٩٣/٢/٢١ إلى إنشاء مجمع للغة العربية بمصر للعناية والمحافظة على اللغه العربية والقضاء على الفوضى الناشئة من دخول ألفاظ ومصطلحات أجنبية بها. وقد أفرد لهذا الموضوع عدة مقالات عرض فيها بحثا مسهباً لهذا الموضوع. وكان بذلك أسبق المفكرين الذين دعوا إلى إنشاء المجمع الحالى الذى أنشىء عام ١٩٣٤.

٣ ــ التعليم الأولى.. دعا إلى جعله إجباريا لجميع أبناء البلاد بحيث يشمل غير مواد الدراسة العلمية العادية. الإهتمام بصفة خاصة باللغة العربية والتاريخ الوطنى والدين والتربية الوطنية.

٤ ــ المسرح الوطنى المدرسى.. يعد النديم من رواد المسرح

الوطنى فى مصر . وأول مدرس أدخل منهج الفن المسرحى كمادة دراسية يعنى بتعليمها نظرياً وعملياً وقد أخرج عده مسرحيات مدرسية إشترك مع تلاميذه فى تمثيلها . وقد نجحت نجاحاً هائلا حتى أعجب بها حكام البلاد فأجازوه عنها بالجوائز المالية .

٥ ـــ إصلاح الأزهر . . الأزهر مشكاة النـــور للعالم الإسلامى أجمع . تشع منها أنوار الهداية والعلم لجميع الشعوب الإسلامية . بل هو الجامعة العريقة الأثيلة التى تغذى أقطار العروبة جمعاء بالرواد والعلماء والقادة والمرشدين .

لقد هال النديم ماوجد فى عهده من أساليب تعليمية سقيمة ، واضطراب واختلال يسودان جو هذا المعهد العلمى الجليل . فانتضى قلمه وعرض لنواحى النقص فى النظام القائم بالأزهر فى عهده . ودبجت براعته عدة مقالات آية فى الدقة وسعة المعرفة . مقترحا النواحى الضرورية لاستكمال أسباب النقص فى الأساليب المعمول بها وقد اهتدى بها من جاء بعده من المصلحين . وارتقى نظام التعليم به حتى أصبح جديراً بتحقيق رسالته العظيمة .

وهكذا كان النديم أسبق الكتاب فى الدعوة لإصلاح الجامعة الإسلامية الأولى فى العالم .

صحف النديم :

إشترك النديم أول ما اشترك فى تحرير صحيفتى أديب إسحق وسليم نقاش (المحروسة) و (العهد الجديد) بالإسكندرية اللتين صرح بهما عقب إلغاء جريدتى (مصر) و (التجارة) . وكان هذا أول عهده بالأعمال الصحفية ثم عزم على أن تكون له صحيفة خاصة به بعد ذلك فكان له من تلك الصحف ثلاث .

١ — صحيفة التنكيت والتبكيت .

٢ صحيفة الطائف .

٣ — صحيفة الأستاذ .

صحيفة التنكيت والتبكيت :

أصدر هذه الصحيفة الأدبية الرائعة فى ٦ يونيو سنة ١٨٨١ فى حجم كتاب عادى — وطنية أسبوعية أدبية هزلية ، وهى مجلة كما يقول « هجوها تنكيت ، ومدحها تبكيت ولغتها لاتلجئك إلى قاموس الفيروزابادى ولا تلزمك مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا ، وسخريتها نفثات صدور ، وزفرات تصعدها مقابلة حاضرنا بماضينا » وهى فى مجموعها مقالات إجتماعية عن الحياة فى مصر ، وقال أيضاً عنها « أنه لايريد منها أن تكون ممتنعة بمجازات واستعارات ، ولا مزخرفة بتورية واستخدام ولا

مفتخرة بفخامة لفظ وبلاغة عبارة ولا معربة عن غزارة علم، وتوقد ذكاء، ولكن أحاديث تعودناها ولغة ألفناها المسامرة بها . . . إنما هى فى مجالسك كصاحب يكلمك بما تعلم، وفى بيتك كخادم يطلب منك ماتقدر عليه و « نديم » يسامرك بما تحب وتهوى . ونلاحظ فى هذه الصحيفة مايأتى .

١ ــ كانت المقالات التى تهم الخاصة تكتب بلغة فصحى والمقالات التى تهم العامة تكتب باللغة العامية .

٢ ــ كان معنياً فيها بالإصلاح الخلقى والاجتماعى وقد فطن أن التعليم والنقد عن طريق القصص أجدى للنفس وأفعل فى النقد فأكثر منه ونجح فى صحيفته ووصل نداؤها إلى أكبر عدد ممكن .

٣ ــ دعا إلى إصلاح الخطابة لأن انحطاطها من أسباب غفلة الشرق ، ثم قدم بحوثاً فنية فى الخطابة وأصولها وقيمتها وأنواعها وتاريخها وانتهى من ذلك إلى قوله .

« وأود وجود نفر من أعيان بلادنا ، يتبرعون بمبلغ يقوم بنشر خطب أدبية وسياسية ، وأنا أقوم بإنشاء خطبة فى كل أسبوع ، تناسب أحوال الزمان ، ثم تطبع هذه الخطبة وتنشر فى سائر أنحاء القطر لتنبيه الأفكار وتعريف الأمة قدرها وما تحفظ به نظامها بين الأمم ولا يتم هذا الأمر إلا إذا اجتمع

هؤلاء الأعيان وعرضوا لديوان الأوقاف ليتمكنوا من العمل بالخطبة »[1] .

ونرى النديم بالفعل قد أخذ يكتب نماذج للخطب المنبرية العصرية فى جريدته هـــذه لـكى يحتذيها الناس ، وينسجوا على منوالها .

٤ — أن وجه تسمية الجريدة « التنكيت والتبكيت » هو أن النديم كان يقسم المقالة فى صحيفته إلى قسمين — قسم يتهكم فيه من عادة من عادات المصريين — ثم يأتى فى القسم الآخر بقصة فيها نقد لاذع وتوبيخ للتمسكين بهذه العادة — ويأتى التوبيخ على هيئة تعقيب من الجريدة على هذه الحكاية التى أوردها — والقسم الأول من هذين القسمين هو « التنكيت » يرمز له بالنون — والقسم الثانى هو « التبكيت » بالباء — .

٥ — كانت الموضوعات التى طرقها النديم أكثرها ما يتصل بالمجتمع ، وأقلها ما يتصل بالسياسة ، وكان كذلك من أوائل من أدركوا أن الأسلوب الصحفى فى اللغة غير الأسلوب الأدبى ولذلك ترك السجع وعدل عن الزخرف ، ولم يأنف من استعمال بعض الاصطلاحات الدارجة والألفاظ العاميـــة المألوفة لإيضاح غرضه للقراء . .

---

(١) سلافة النديم الجزء الأول ص ١٢٧ — ١٢٨ .

ثم نشبت الثورة العرابية — واتصل بها النديم ، وطلب إليه أن يخدم الثورة بصحيفته وسعى رجال الثورة أنفسهم حتى نقلوا النديم وصحيفته إلى ميدان القتال وأطلق هو على صحيفته الجديدة إسم الطائف .

الطائف :

في هذه الجريدة كان النديم معنياً بالثورة العرابية لذلك كانت مقالاته السياسية فيها ذات طابع ثوري واضح ، وقد بذت جميع الصحف المعاصرة وهي (الأهرام — المقيد — الفسطاط — السفير — النجاح) في المكانة والخطورة .

بدأت الصحيفة أولا تحمل على المساوئ الاجتماعية العامة ثم انتقلت إلى الموضوعات السياسية العميقة والأخبار الهامة التي تميزت بها في عهد الثورة ، حتى إن معظم الجرائد المعاصرة نقلت عنها أكثر ما نشر . وكان من أهم وظائف الطائف ، الدفاع عن الثورة ورجالها ، وقد احتفى بها رجال الثورة وأنصارها ، فاشترك لها النواب بمبالغ كبيرة وأصبحت لهم لسانا ، فيه من العنف والشدة ما اضطر الشيخ محمد عبده رقيب المطبوعات العربية والتركية ، إلى تعطيلها شهراً ، وقد اتخذ عطف الهيئات النيابية عليها لوناً رسمياً ، نذكر تفاصيله لأنه نادرة في صحافة الشرق والغرب على السواء .

كتب محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب فى ١٥ ربيع الثانى سنة ١٢٩٩ هـ — إلى « داخلية ناظرى عطوفتلو أفندم حضرتلرى يقول » حيث أن حضرة محرر الطائف أظهر ارتياحه إلى نشر محاضر المجلس وأفكار نوابه ، وما يتبع ذلك مما يستدعى القيام بالحقوق الوطنية ، للمجلس ، رؤى ، إنه لا مانع من مكاتبة الداخلية لتصدر أمرها إلى إدارة المطبوعات بمعرفة هذه الصحيفة ممتازة بهذا الإختصاص ونسبتها إلى المجلس على الوجه الذى قدمه حضرة محررها المومأ إليه) .

وقد ذكرت جريدة مصر فى ١٨٨٢/٣/٢٣ تعليقاً على ذلك .

إن مجلس النواب وقد اختار جريدة الطائف الغراء لنشر ما يروم إبداءه من الآراء والخواطر والتقارير والمحاضر فهى الآن صحيفته الشبيهة بالرسمية — ثم تقول « وجريدة الطائف جديرة بهذا الإختيار فهى موصوفة بالوطنية ، معروفة بصدق النية ، منتشرة نافذة الكلام ، خطيرة مرعية المقام » .

ظهرت خطورة الطائف فى هذه الرسمية التى حبتها إياها الحكومة دون صحف الثورة الأخرى ، فقد استطاع محررها أن يكون على بينة من شئون الدولة ، وأن يجد فى عطفها المادى والأدبى ما يعينها على تخطى المصاعب التى تعترض الصحف عادة وتحول دون تقدمها ، وهذه ميزات بجانب قدرة محررها ، تجعل

لها مكانة خاصة بين الصحف المصرية خلال الثورة العرابية .

ولم تقتصر الطائف على « نشر محاضر المجلس وأفكار نوابه » بل صورت الأعداد القليلة التي عثرنا عليها مدى العنف في تحريرها ، وأظهر ما فيها نقد الخديو إسماعيل ووصف مظالمه ، والأساليب التي اتبعها في سلب الأملاك من الفلاحين والملاك وسنأتي بفصول منها في مكان آخر .

والحق الذي لا مرية فيه أن النديم كان أول كاتب صحفي جرىء ، انتقد أشد الأحكام إساءة لمصر من أبناء محمد علي ، وهما إسماعيل وتوفيق ، ووصف جنايتهما على البلاد مما أدى بها إلى الإفلاس المالي والإرتباك الإقتصادي ، الذي أدى بدوره إلى الإحتلال البريطاني في عهد توفيق والفصل الخاص بمساوىء توفيق ، يعد متمما للفصل الخاص بمساوىء إسماعيل .

ولما انتقلت جريدة الطائف من الحملة على إسماعيل إلى الحملة على الخديو توفيق في لهجة شديدة صريحة أمرت الحكومة بتعطيلها نهائيا في ١٨٨٢/٥/١٧ ترضية للخديو توفيق واعتذاراً له عما كتبته صحيفة الحكومة من التعريض به والإساءة إليه بوصفه الحاكم الشرعي للبلاد .

* * *

تحرجت الأمور في مصر قبيل الإحتلال البريطاني بثلاثة

أشهر تقريباً ، فتدخلت الدولتان الإنجليزية والفرنسية بمذكرة تطلبان فيها استقالة الوزارة البارودية وإبعاد عرابي وبعض خاصته من مصر وإعادة السلطان إلى الخديو توفيق وقد ترتب على هذه المذكرة ، إستقالة الوزارة وتأليف الوزارة الراغبية ودخل فيها عرابي باشا وزيراً للحربية ، ثم تطورت الحوداث سراعاً وحدثت مذبحة الاسكندرية وانتقل الخديو إلى الثغر في ١٨٨٢/٦/١٩ واعتصم بها حتى قضى الأمر باحتلال مصر وتسليم العرابيين .

ومنذ ضربت الاسكندرية وانحاز الخديو إلى الإنجليز حين احتلوها ، أصبحت في مصر صحافتان — صحافة في القاهرة تمثلها الوقائع المصرية والطائف — وقد عادت إلى الحياة — (والنجاح وما إليها من صحف الثورة الأخرى) وصحافة في الاسكندرية يقود زمامها الشيخ حمزة فتح الله في جريدة « الإعتدال » يحمل فيها على عرابي ورجاله ويعاون فيها أديب إسحق الموتور من العرابيين بالمقالات والمنشورات (مصر للمصريين جزء ٥ ص ١٣٦ — ١٩٣) .

وبقيت صحف الثورة في القاهرة خلال الحرب العرابية فيما خلا « الطائف » ، فهذه قد انتقلت إلى الميدان الحربي حيث تحرر عن كثب في معسكر « كنج عثمان » وكانت معظم مقالاتها لاستثارة الهمم ، والطعن في الخديو والانجليز وعن « الطائف » نقلت صحف القاهرة أخبار الحرب وتفصيلاتها ، فضلا عن مقالات محرريها

ثم دأبت الجريدة على إصدار ملاحق لها تذكر فيها مساوىء أنصار الخديو ومن هذه الملاحق ، الملحق الذى نشرته بعنوان (سليم وبشارة تقلا والخديو توفيق) ملحق الطائف فى ٨ شوال سنة ١٢٩٩ هـ وفيه هجو مقذع شديد .

وأهم ما امتازت به صحيفة الطائف هو :

١ — بعد أن كانت كتابة النديم فى صحيفة « التنكيت والتبكيت » تقدم على الكتابة والرمز وتنم عن الحياد والحذر ، أصبح فى جريد الطائف يكتب بلغة سافرة ، لا يخشى فيها سلطانا ، ولا يأبه بملك أو أمير ويترجم عن أفكار رجال الثورة وآرائهم ويصدر عن هذا المرجل الذى غلا فى صدورهم .

٢ — كتب فى الطائف المقالات العنيفة التى تشرف النديم إلى أبد الدهر ، فقد سبق جيله وكأنه قرأ فى لوحة المستقبل سطوراً عن جهاد الأجيال المقبلة فى التخلص من نير حكام بيت محمد على ، فكتب أخلد ما كتبه صحفى حتى الآن عن ظلم إسماعيل واغتصابه حقوق الشعب وأملاكه دون حسيب أو رقيب ، ثم كتب عن توفيق الذى خان الأمانة ، وخان الشعب وسلم بلاده للانجليز واهتم بالدول الأجنبية . ولعمرى فإن هذه الصفحات التى نعتها بعض الصحفيين بأنها مليئة من النقمة والتشفى فى إسماعيل (طبعاً كتبوا

ذلك خشية من نفوذ أبناء محمد على) لتعد أعظم ما يشرف تاريخ كاتب مصرى نزيه .

٣ ـــ حفلت الطائف ببحوث قيمــــة عن حالة الفلاحين وما انتهوا إليه من بؤس وعوز ودعوة الحكومة إلى العناية بهم من جميع النواحى الممكنة .

٤ ـــ دعا النديم إلى الإصلاح النيابى فى مصر وكان رأيه أن الإصلاح السياسى فى مصر لا يقوم إلا على الإصلاح النيابى .

٥ ـــ تحررت الطائف فى أول الثورة الصدق فى رواية أخبارها ولكنها انحرفت بعد ذلك ولم تلتزم جانب الصدق ، وأخذت تذكر الحوادث والأخبار على غير حقيقتها ، ثم نوعا من التهويل فى ذكر ما يدور من معارك ، بين المصريين والانجليز ، ولهذا السلوك ما يبرره من تقوية الروح المعنوى فى الجيش وإبعاد شعور القلق والخوف عن الشعب .

٦ ـــ أصدر النديم مع الطائف ملحقاً به ، كان يبيح لنفسه فيه من حرية النقد والمبالغة فى التجريح والذم فوق ما ينبغى لصحفى شرقى أو غربى .

٧ ـــ رغم ما جاء فى أسلوب جريدة الطائف من عنف ، فقد غلبت عليها العبارة المشرقة ، والصور البديعة ، ورصعت بالبحوث

القيمة فى المسائل السياسية والاقتصادية وكانت فصولها مثلا رائعة فى البلاغة والبيان .

الأستاذ :

عفا الخديو عباس الثانى عن السيد عبد الله النديم فعاد إلى مصر وأصدر الأستاذ وآلى على نفسه الدفاع عن الخديو ونفذ إلى الميدان السياسى من هذه الثغرة ، وصال فى هذا الميدان وجال ، مدافعاً عن الحركة الوطنية حيناً ، ومهاجماً الإحتلال الإنجليزى حيناً آخر ، ولكنه رغم كتابته فى الأغراض السياسية ، مما أحفظ الإنجليز عليه ، فقد اختص الجزء الأكبر من نشاطه فى هذه الصحيفة للإصلاح الإجتماعى وإصلاح التربية والتعليم والدفاع عن الشرق ضد مطاعن الغربيين وافتراءاتهم .

ظهر العدد الأول من الأستاذ فى أغسطس سنة ١٨٩٢ وكانت الجرائد المشهورة فى عهده : المقطم والأهرام والمؤيد والنيل وكان لها ثلاث اتجاهات ، منها ما يسالم الإحتلال ويؤيده ، ومنها ما يؤيد الحركة الوطنية ويؤيد من ورائها السياسة الفرنسية ومنها مايؤيد الحركة الوطنية والنزعة الإسلامية والإرتباط بالدولة العثمانية ، وكل منها يعرض وجهة نظره فى شىء من الهدوء والوقار .

أما الأستاذ فقـــد دعا إلى مصر للمصريين ، لا لتركيا

ولا للأوروبيين ، وناصر الحركة الوطنية والإلتفاف حول الخديو أمير البلاد ، ودعا الذين غلبهم الخوف بعد الاحتلال أن يبرزوا من مكامنهم ، ويتصلوا بالجمهور ليوقظوه ، ودعا إلى تأليف الأحزاب حتى يكون لكل جريدة حريتها ولكل حزب براجه .

ولقد جاء حاداً عنيفاً فى كتاباته ، مما استتبع الحدة فى الرد عليه من جوانب الصحف الأخرى ، فتميزت الجرائد بعضها عن بعض فى وضوح وجلاء ، وكانت هذه الحدة وهذا الجدل المتتابع فى المسائل العامة أكبر موقظ للرأى العام النائم ، وبعث وعيه ، وتنبيه تفكيره إلى المسائل الهامة التى يتعلق بأسبابها مصير بلاده ، ومستقبلها السياسى والاجتماعى .

وكانت جريدة الأستاذ، هى الأستاذ للزعيم مصطفى كامل فى صباه ، تعلم منها الاتجاه والنغمة ، وإن اختلف عنها من حيث الثقافة والأسلوب تبعاً لتطور الظروف والأحوال .

وقد لقيت هذه المجلة إقبالا منقطع النظير ، وتجلى هذا الإقبال فى كثرة عدد المشتركين فيها ، فبلغ عددهم فى العاصمة وحدها ٨٦٠ مشتركا و ١٧٨٠ فى الخارج وكانت تطبع من العدد الواحد ٢٨٤٠ نسخة ، وهذا العدد يدل على رواج الصحيفة وقد امتلأت بالأزجال والمناظرات والمقالات الطويلة ، ولما تفيض به من بحوث عميقة ودراسات دقيقة . وقد صدر العدد الأخير منها

فى ١٨٩٣/٦/١٣، وفيه ودع قراءه فى كلمة له بعنوان «تحية وسلام» شكر فيها للقراء عنايتهم به وإقبالهم عليه ، وذكر لهم أنه صمد لطائفة التهم التى وجهت إليه ، ومنها التعصب الدينى ، وأنه محرر ثورى ، وهو يشكر للصحف التى دافعت عنه ضد هذه التهم ، بجريدة المؤيد والأهرام والوطن ، وبعض الصحف الأجنبية فى مصر وأوروبا ، ولا ينسى فى هذا المقال أن يقدم الثناء عاطراً للخديو عباس فهو الذى أصدر عفوه عنه ، ومنحه الحياة فى مصر ويشكر جميع المصريين الذين تأثرت نفوسهم ، وأشفقوا على الجريدة من الغيبة ثم قال :

« وكنت أود لو دامت لى صحتى فأقوم على خدمتى ، ولكنى أصبت بضعف فيها وأشار علىّ جميع الأطباء ، بتغيير الهواء خارج القطر المصرى حتى يقوى ضعيفكم ويشفى مريضكم فيعود لخدمة وطنه وأهله » .

وهكذا اختفى الأستاذ بعد أن اقتنى القراء منه مجلداً فيه ألف وثلثمائة صحيفة وأهم ما امتازت به مجلة الأستاذ فى الكتابة هو :

١ — التوسع فى الإصلاحات الإجتماعية .

٢ — نقد أساليب الزراعة فى مصر وتأخرها ووجوب إصلاحها .

٣ — فوضى اللغة العربية ووجوب إنشاء مجمع يحفظ كيانها ويكمل نقصها .

٤ — كان ينشر ملحقاً « للأستاذ » وهو صفحات من كتاب ألفه وهو فى المخبأ إسمه : « كان ويكون » ووضعه على نمط قصصى وهو خلاصة ما كان يدور بينه وبين صديق فرنسى له من حديث وجدل يتعلق أغلبه بأصول الأديان الثلاثة ، وتاريخها ، وبعض الأخبار عن مخبئه ، وبعض الآراء السياسية والاجتماعية ، ويدل ما نشر فى المجلة على نظر عميق وبحث واسع وسماحة دينية لطيفة ، ولم ينشر الجزء الباقى من هذا المؤلف وكان يشمل جانباً من السياسة والتاريخ المصرى القديم .

٥ — ناصر الخديو عباس الثانى فى النزاع الذى قام بينه وبين الإنجليز سنة ١٨٩٣ ، على أثر عزل الخديو صنيعتهم مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء فى ذلك الحين ، فقام المترجم يكتب فى المجلة مستنهضاً الهمم ، حاضاً على مؤازرته ، ونبذ طاعة الاحتلال ، وكان ذلك سبباً فى إثارة الإنجليز عليه ، ونفس بعض أصحاب الصحف الموالية لهم ، لما رأوه من رواج صحيفته ، وكان ذلك هو السبب المباشر الذى أدى إلى تعطيل صحيفته .

إذا كان مفخرة لصحفى مصرى أن واجه يوما حكام بيت محمد على ، بنقد صريح فان عبدالله نديم ، ليطول عليهم فخاراً ، ويبذهم جميعاً فى جرأته وشجاعته .

لقد كتب سطوراً نارية فى صحيفة الطائف ، ملتهبة بحرارة الوطنية ، متوهجة بنور المضاء والعزة ، مسجلا فيها مظالم إسماعيل ومآسى جنايته على أبناء الشعب ، ويعد إسماعيل بحق أعظم حاكم ظالم فى تاريخ مصر الحديث .

كان لإسماعيل إصلاحات كثيرة بالبلاد شملت كل نواحى العمران فيها ، فكان أول ما مر بخاطره أن تضارع عاصمته عاصمة نابليون الثالث ، وأن تكون القاهرة باريس الشرق ، ولم تكن إلا سنوات حتى قامت القصور شاهقة على شواطىء النيل بين الجزيرة والروضة ، ثم فتحت المدارس ومدت السكك الحديدية وعم النشاط المعمر أنحاء الدولة جميعا ، ثم فتحت القناة بين البحر الأبيض والأحمر ، فى مشهد فذ فى تاريخ العالم كله ، شهده ملوك أوروبا ، وتفتحت أعينهم إلى مصر الناشئة فى منهج التقدم والحضارة ، ثم ظهر إسماعيل فى أبهة من السلطان تذوى أمامها أبهة أصحاب العروش فى الدول الأوربية كلها - كل ذلك عظيم وكل ذلك جميل .

ولكن الوطنى المخلص ينظر إلى جوهر الأشياء لا إلى مظاهرها ، ينظر إلى المستقبل لا إلى الحاضر . هل كان إسماعيل وطنياً حقا يحب بلاده ، ويحب رفعتها ويحب لها المجد والسؤدد فى مستقبل أيامها ؟ .

هذه الديون الباهظة التى قيد بها البلاد وعطل بها نموها الاقتصادى ، والتى بلغت أكثر من تسعين مليون من الجنيهات — من الذى استدانها ، ولمصلحة من أنفق معظمها ؟ .

كتبت[1] مدام (أولمب أدوار) فى كتابها عن مصر تقول عن الخديو إسماعيل (أنه لم يكن يهتم إلا بجمع الملايين ، وكان يقتنى الأطيان فى كل ناحية بقدر المستطاع ويلجأ إلى السخرة لزرعها واستصلاحها ، ويعقد القرض تلو القرض لآجال طويلة تاركا لمن يخلفه فى الحكم أن يسدد ديونه حتى كأنه يقصد أن يعقد مهمة الحكم لمن يأتى بعده) .

ويقول مؤلف كتاب تاريخ مصر المالى[2] - (إن المعروف عن إسماعيل أنه كان بطبيعته ميالا إلى الاستكثار من المال والعقار ، وظهرت عليه هذه الميول منذ ولايته الحكم فقد كان نظار أملاكه ومفتشوها يفتنون فى حمل الفلاحين على بيع أطيانهم

(١) كتاب كشف الستار عن أسرار مصر لمدام أولمب أدوار ص ٤٩ .
(٢) تاريخ مصر المالى ص ١٨ و ١٩ .

أو التنازل عنها للخديو حتى صار مالكا لخمس أطيان القطر المصرى) .

لا عبرة بما فعل إسماعيل من إصلاحات كان الغرض منها إظهاره بمظهر الأبهة والمجد ، وتجميل عاصمة ملكه بمظاهر الحضارة والثراء بينما يعيش غالبية الشعب فى جوع ومشقة وبؤس ، ويكاد يموت الفلاحون جوعا ، يتعبون ويكدون فى زرعهم وحصادهم ويجمع غيرهم ثمرة تعبهم .

عاصر النديم مظالم إسماعيل ، وكتب عنها كتابة شاهد عيان ، رأى المظالم الفادحة التى جناها وأذنابه من موظفى دوائره ، على الفلاحين التعساء ـ رأى كيف يساقون كما تساق السوائم ثم يسخرون للعمل فى أراضيه بدون أجر ـ رأى الأطفال الذين لم يجنوا ذنباً ولا اقترفو إثماً وهم فى سن البراءة والطهر يساقون مع ذويهم كأنهم العجماوات التى لا تعى ، ثم يذهبون إلى الأراضى يخوضون فى أوحالها ، ويعملون طيلة النهار تحت سفع الشمس صيفاً ووابل المطر شتاءاً ، وفى نهاية النهار يجمعون إلى مخازن واسعة ، ليناموا فيها مكدسين متراصين ، دون عناية أو رعاية ، فى أماكن قد حرمت جميع الوسائل الصحية الضرورية .

كانوا يبقون وقوفاً أثناء عملهم ولا ينعمون بفترة بسيطة لتناول طعامهم بل يتناولوه أثناء عملهم .

كتب النديم فصوله عن مظالم إسماعيل دون خوف ولا تردد ، لمصر وأجيالها المقبلة ، فى وقت كان إسماعيل ، يسمى للعودة إلى مصر بما له من أنصار ورجال ، ولكم زيف التاريخ ودست فيه الأكاذيب والترهات الباطلة عن مجد إسماعيل وعظمة أياديه البيضاء على البلاد وكان الكتاب والمؤرخون يتبارون فى عهد الملك فؤاد فى الكتابة مدحا وتقريظاً ، لقاء عطائه وهداياه ـ أما ذلك الرجل الفقير ابن الخباز ، فقد ضرب المثل لكل المصريين جميعاً فى شجاعته ـ فكتب عن أكبر حاكمين خائنين وهما إسماعيل وتوفيق بكل صراحة وشجاعة فى الطائف ، ولكم شنع الكتاب من سابق ومعاصر به ، ووصفوا مقالاته عن إسماعيل بأنها سفه ، وحقد ، ومبالغة ، دون حق ، ولكن الحقائق الدامغة التى حفل بها عهد إسماعيل ، لا تدع مجالا إلى الشك فى أقوال النديم بل هى أصدق أقوال قيلت حتى الآن ــ وقد تحدى الحكومة وتحدى المسئولين فى أن ينقضوا ما ذكره عن جنايات إسماعيل بالبرهان فسكتوا جميعاً ، واكتفوا بأن عطلوه عن الكتابة .

رأى النديم وهالة ما رأى ــ الفلاحين يقعون صرعى المرض ، وصرعى الموت دون رحمة ولا إشفاق ، والطاغية لاه فى غيه ، ساهر فى ملاذه ومواخيره ، والدولة بأسرها تنحنى

له صاغرة خاضعة ، وليس من الحكام من يعارضه أو يحاسبه عن تلك الجرائم التي يرتكبها عماله وموظفوه .

كم من طفل بريء ، ورجل قد ناءت به السنون ، وفتاة عذراء لقيت حتفها على أثر العذاب الذي لاقته في معسكرات التسخير ولم يجد الوطن من يدافع عن هذه الضحايا البريئة . . .

رأى النديم ، هذا ، وانطبعت على صفحة قلبه صور التعذيب التي أصيب بها الوطن في صميم أبنائه وأبى أن يحس بغير هذه الصور عن عهد إسماعيل .

ما جدوى الأوبرا التي بناها ، وطريق الهرم الذي أمر برصفه في بضعة أيام ، إبتغاء شهرة كاذبة ، ومجد مزيف ، وسمعة أساسها الفجور والشهوات والأرجاس ! .

أما هذه المآسي الشنيعة التي ارتكبها في حق الوطن بل في حق الإنسانية جمعاء — (لأن ما يرتكب ضد كائن بشرى مهما كان ، إنما هو موجه للجنس البشرى بأسره) — ستبقى أبد الدهر ، لطخة عار ، في تاريخه ، وفي تاريخ كتاب مصر ، ممن صفرت نفوسهم ، فتملقوا الظالمين ! .

١ — جمعية مصر الفتاة :

عاد النديم إلى الإسكندرية سنة ١٨٧٦ رجلا خاملا ، لا يعرف عنه أكثر من لقب (زجال وشاعر) بعد أن اشتغل فى أعمال عديدة بسيطة ، لم يفوق فى واحدة منها سوى فى مواهبه الأدبية من زجل وشعر وكتابة — واشتغل فى الصحافة فى جريدتى أديب إسحق وهما مصر والتجارة ، وهى صحف وطنية تكتب بوحى السيد جمال الدين الأفغانى كما ذكرنا سابقاً وكانتا من أقوى صحف المعارضة فى أواخر عهد إسماعيل وفى عهد توفيق وحفلتا بكثير من المقالات الحماسية التى تنتقد سياسة الحكومة وتندد بتفريطها فى حقوق البلاد ، وكان هذا أول عهد النديم بالكتابة السياسية — ثم انضم النديم بعد ذلك إلى جمعية مصر الفتاة وكانت لها جريدة خاصة وهى جريدة مصر الفتاة وكانت هذه الجمعية من الجمعيات السياسية السرية التى يشرف على حركتها الأفغانى ، وتعمل على مقاومة مظالم الخديو إسماعيل . وحدث أن الجريدة كتبت مقالا تطعن فيه الحكومة لمناسبة توسيع إختصاصات الرقيبين الماليين[١] فعطلت تعطيلا نهائياً لنشرها مقالات وأخبار

(١) المونيتور إجبسيان عدد ١٨٧٩/١١/١٤ .

عدتها الحكومة مهيجة للخواطر والأفكار[1] .

وقد رفعت جمعية مصر الفتاة عريضة إلى الخديو ، بالمطالب التي تحقق حرية الشعب واستقرار الحكم على أساس دستوري سليم[2] .

ثم حلت جمعية مصر الفتاة وتألفت بدلها جمعية علنية وهي الجمعية الخيرية الإسلامية الأولى وكانت لها أغراض سياسية وبرنامج إنشائي عملت على تحقيقه ، وهو فتح المدارس للتعليم وعينت النديم مديراً لمدارسها كما سبق أن ذكرنا .

ثم استقال النديم من إدارة المدرسة وعضوية الجمعية واشتغل مستقلا في صحيفته التنكيت والتبكيت وكان آنذاك قد اشتهر بين الشعب كخطيب مشهور وأحد المشتغلين بالسياسة وناظر مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بالاسكندرية سابقاً ، وله صلات بمشاهير رجال الدولة منذ عمله بهذه المدرسة ونجاح حفلاته المدرسية التمثيلية وزيارة الخديو توفيق والأمراء لها .

وكانت جريدة التنكيت والتبكيت معرضاً لآرائه السياسية التي استمدها من تعاليم الأفغاني وأصدرها بالقاهرة في ١٩٨١/٦/٦ .

---

(١) الوقائع المصرية عدد ١٩٧٩/١١/١٧ .

(٢) كتاب الثورة العرابية لعبد الرحمن الرافعي ص ٧٢ .

أما كتاباته السابقة فى الجرائد التى اشتغل فيها قبل ذلك لا يستطاع تبين وجهاته فيها بالضبط ، لأنه كان مقيداً فيها بسياسة رؤساء تحريرها من جهة وقد منع من كتابة إسمه على المقالات التى يكتبها فى بعضها من جهة أخرى ، ولو أن أسلوبه وكتابته أصبحتا معروفين للقراء ، فنالت هذه الجرائد إقبالا بأسباب ذلك .

وقد تأثر النديم فى جميع كتاباته السياسية والوطنية بمدرسة جمال الدين الأفغانى التى كان أحد تلاميذها .

٢ – إتصاله بالعرابيين :

بينما كانت جمعية مصر الفتاة تقود دعوة المعارضة السياسية بالاسكندرية كان الحزب الوطنى يقوم بتنظيم إجتماعاته وتبادل الرأى بصفة سرية فى حلوان وكان يشتمل على الناقين من سياسة رياض باشا رئيس الوزراء فى ذلك الوقت وقد نشر هذا الحزب فى ١٨٧٩/١١/٤ أول بيان رسمى له طبع منه عشرين ألف نسخة وسعى رياض فى معرفة ناشريه لإقصائهم إلى السودان فلم يستطيع إلى ذلك سبيلا (١) .

---

(١) كتاب عرابى باشا لجون نينيه

ولما كان من أعضاء هذا الحزب سلطان باشا وأحمد عرابى بك وصاحباه عبد العال حلمى وعلى فهمى ومحمود سامى البارودى باشا وسليمان باشا أباظه وشاهين باشا كنج وزير الحربية السابق الذى كان من زعمائه المشهورين .

ولما كان النديم على صلة وثيقة بشاهين باشا كنج منذ أن اتخذه نديماً له وأقام عنده بطنطا مدة من الزمن وكذلك صلاته بالبارودى وغيرهم من تلاميذ مدرسة الأفغانى ، فنحن نرجح أن الصلة توثقت بين النديم والحزب الوطنى عن طريقهم .

وقد بلغ أثر شاهين باشا كنج فى الحركة الوطنية[1] مبلغاً جعل الحكومة تضطهده فاحتمى بالحماية الإيطالية وغادر إلى إيطاليا فصدر أمر الخديوى فى ١٤/٦/١٨٨٠ بتجريده من رتبه وألقابه ومحو إسمه من دفاتر ضباط الجيش .

ولقد كان الحزب الوطنى صاحب الأثر الأكبر فى إحداث الثورة العرابية وكان محركوا هذا الحزب من تلاميذ مدرسة جمال الدين الأفغانى — كما كان منهم أيضاً أعضاء جمعية مصر الفتاة بالإسكندرية . ولاشك أن أعضاء الجماعتين قد اتصلا لطبيعة اتصال

---

(١) كان شاهين باشا كنج عضواً باللجنة الوطنية التى اجتمعت عند إسماعيل راغب باشا فى ٢/٤/١٨٧٩ وقدمت عريضة للخديوى إسماعيل يطلب تعديل نظام مجلس شورى النواب ومشروع تسوية مالية عارضوا فيها مشروع ريفرس : ويلسن.

الجمعيات الوطنية التى تهدف لغرض واحد ، وهذه كانت فرصة أخرى أمكن للنديم بها أن يتعرف إلى رجال الحزب الوطنى السرى وقتئذ .

وأنه من المناسب أن نذكر بإيجاز مبادىء الحزب الوطنى وهى كما يلى[1] : —

١ — حفظ الروابط الودية بين مصر والباب العالى والاعتراف بالسلطان خليفة للمسلمين .

٢ — تأييد سلطة الخديو ما دامت أحكامه وفق العدل والإلحاح بتنفيذ الحكم النيابى وإطلاق الحرية للمصريين وعدم العودة للاستبداد .

٣ — رجال الحزب يعترفون بالديون الأجنبية رغم أنها أنفقت لمصلحة حاكم ظالم ويؤيدون استمرار المراقبة الثنائية بصفة مؤقتة ويؤملون يوماً أن تستقل الحكومة الوطنية بالأمور المالية وينعون على هذه المراقبة كثرة موظفيها من الأجانب وجسامة مرتباتهم وفى المصريين من يستطيع أن يحل محلهم ثم يعجبون من إعفاء الأجانب من الضرائب وعدم خضوعهم لقانون البلاد

---

(١) نشرت هذه المبادىء بجريدة التيمس فى ١/١/١٨٨٢ وذكرت فى كتاب الثورة العرابية ص ١٤٥ للاستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى .

٤ — النهضة بالحياة النيابية وتعميم التعليم وحرية المطبوعات واستكمال التربية القومية للشعب ومقاومة المفسدين والخونة الذين يثيرون القلاقل للاضرار بمصلحة البلاد وخدمة الأجانب الذين يسوؤهم إستقلال مصر .

٥ — الحزب الوطني حزب سياسي لا ديني وجميع أبناء الوطن من مسلمين ونصارى ويهود إخوان ، حقوقهم في السياسة والشرائع متساوية .

٦ — أمال الحزب معقودة على إصلاح البلاد مادياً وأدبياً وذلك بتنظيم القوانين ونشر المعارف وإطلاق الحرية السياسية[١] .

نلخص من هذا أن النديم كان على صلة وثيقة بالحزب الوطني وقد أوردنا لهذا أكثر من دليل وليس أقوى برهان لذلك من التجاوب الفكري بين تلاميذ الأفغاني الأعضاء في هذا الحزب والذين في الخارج — واشتغال النديم بصحافة تؤيد مبادىء الحزب الوطني .

---

(١) مصر للمصريين جـ ٤ ص ٢١٧ مع بعض تعديلات إقتضاها الرجوع للأصل الإنجليزي في كتاب (التاريخ السري للاحتلال) تأليف المستر بلنت .

دور النديم فى الثورة العرابية

لما كان من مقدمات الثورة العرابية تصرفات عثمان رفقى باشا وزير الحربية فى وزارة رياض باشا من تعصب للشراكسة ، والترك من الضباط والاجحاف بحقوق الضباط المصريين فى الجيش وإصداره قانون القرعة العسكرية الجديد الذى يحول دون ترقية الضباط من تحت السلاح (كما كان متبع آنذاك منذ إصلاحات سعيد باشا) الصادر فى ١٨٨٠/٧/٣١[1] ثم إصداره أمراً بنقل الميرالاى عبد العال بك حلمى حشيش قائد آلاى طره إلى ديوان الجهادية وجعله معاوناً وهذا إنقاص لدرجته وتعيين شركسى بدله ، وكذلك عمل مع أحمد بك عبد الغفار قائمقام آلاى الفرسان .

فلما علم عرابى[2] بهذه الأوامر قبل نشرها وكان مدعواً فى وليمة بدار نجم الدين باشا لمناسبة عودته للحج ليلة ١٨٨١/١/١٦ ثار لها غاضباً ، ثم ذهب إلى بيته فوجد لفيفاً من الضباط ينتظرونه وتداولوا معه فى الأمر بمناسبة صدور هذه الأوامر ثم اختاروه رئيساً لهم فى حركتهم لمقاومة مظالم عثمان رفقى باشا ثم كتب عرابى

(١) الوقائع المصرية فى ١٨٨٠/٨/٤ .

(٢) مذكرات عرابى ص ١٥٢ .

من فوره عريضة إلى رياض باشا بمطالب الضباط وهى عزل عثمان رفقى وتشكيل مجلس النواب وزيادة الجيش إلى ١٨٠٠٠ جندى وتعديل القوانين العسكرية وتعد هذه الحركة فاتحة الثورة العرابية .

ولما كان عرابى والضباط الذين معه أعضاء فى الحزب الوطنى فلذلك إندمج العسكريون والمدنيون من الأعضاء وأصبح لهم قالب واحد هو الحزب الوطنى الذى قدم أحمد عرابى باشا مبادئه المذكورة سابقاً للمستر بلنت لنشرها فى الجرائد الإنجليزية بعد القيام بحركة الجيش — وقد كانت مبادئ الحزب الوطنى ونشاطه قبل ذلك سرية[1] .

وقد ذكر أحمد سمير فى كتابه سلافة النديم عن أسباب إنضمام عبد الله نديم للعرابيين ، واشتغاله بالثورة العرابية ما يأتى :

كان النديم ميالا بفطرته إلى الظهور فى عالم الأدباء بمظهر الخادم لأبناء الوطن ، فأخذ يخطب بذلك على ملأ الأشهاد إرتجالا فى كل ناد ومحتفل ، فلما ناصبته الجمعية الخيرية الإسلامية العداء غادر الإسكندرية واتخذ القاهرة دار هجره ، وكان إسمه قد اشتهر فظن أن الحكومة ستقدر له مكانته وتكل إليه وظيفة هامة يخدمها بها ولكن ساء ظنه ، حينما فضلت الحكومة رجلا أجنبياً فى منصب

(١) كتاب الثورة العرابية لعبد الرحمن الرافعى ص ٧١ .

خطير كان يطمح له وعرضت عليه منصبا أقل فى الاعتبار الأدبى ولو أن مرتبهما واحد ، فأبت نفسه وتيقن بتفضيل الحكومة للأجنبى عليه ، وأسرها فى نفسه ولم يبدها لهم وصادف أن أخذت نيران الثورة تبدو من خلل الرماد ، وخصوصا قد سمع رجالا تنادى بطلب الإصلاح ، وتعقد الاجتماعات الليلية مجاهرة بمقاصدها فى الصحف المتداولة عربية وأفرنجية ، حتى اتفقت كلمة الباحثين على أن فى مصر حزباً وطنياً ، لا هم له إلا السير بالبلاد فى سبيل الحضارة ، والمدنية ، وانتشالها من وهدة الخراب ، الذى ألقاها فيه الحكام السالفون) .

ولو أن كلام أحمد سمير لا يحدد بدقة ظروف اشتراك النديم بالثورة العرابية ، ولكنه يعطينا فكرة ولو مقربة ، تؤيد اشتراك النديم فى الحزب الوطنى .

وقد كتب النديم فى عدد المجلة الصادر فى ٩ / ١٠ / ١٨٨١ عن حركة الجيش المصرى وذهابه لعابدين ، وقيامه بمظاهرته المشهورة ، فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ومواجهته الخديو توفيق بكل شجاعة ، بقيادة أحمد عرابى باشا وتقديم طلباته المشهورة ، وذلك فى مقال بعنوان : (تاريخ مصر الفتاة أو زفاف الحرية) — تكلم فيه عن ظلم أمراء عائلة محمد على ووقوع البلاد تحت طائلة المصائب التى جناها إسماعيل عليها من ديون وتدخل أجنبى وتعسف فى الحكم

ثم ظهور الجيش المصرى الباسل ، وقيامه بالمطالبة بحقوق هذا الشعب المظلوم .

ثم يتكلم بعد ذلك عن مظاهر الاحتفاء والتكريم التى أظهرها الشعب حين توديعه أحمد عرابى بمحطة القاهرة ، وهو مسافر على رأس فرقته إلى رأس الوادى بالشرقية ، ثم ينشر خطبة عرابى على جمهور المودعين ثم خطبته التى ألقاها بعده .

ولنذكر شيئاً مما جاء فى خطاب أحمد عرابى :

سادتى وإخوانى ، بكم ولكم قمنا وطلبنا الحرية ، وقطعنا غرس الاستبداد ، ولا نثنى عن عزمنا حتى تحى البلاد وأهلها ، وما قصدنا بسعينا إفساداً ولا تدميراً ، ولكن لما رأينا أننا بتنا فى إذلال واستعباد ، ولا يتمتع فى بلادنا إلا الغرباء ، حركتنا الغيرة والحمية العربية إلى حفظ البلاد وتحريرها والمطالبة بحقوقها . . .

فى عصر رياض وقبله ، لمن كان يرفع المظلوم شكواه ، الذى تطرحه إرادة الخديو أو استبداد الوزير ، ليلقى الموت على ضفاف النيل الأبيض بعد تجريده من أملاكه ، « ألى البرلمان ولم يكن له أثر ، أم إلى الخديو ولم تكن له سلطة حقيقية ، وكان يكره معاملة الفلاح بالعدل أم إلى الوزراء وقد كانوا عبدة المصالح الشخصية ، ام إلى الآستانة ونحن لا نملك الذهب الذى نسد به نهمها ، والآن

تكون لنا برلمان من لحمنا ودمنا ، فسيكون الواسطة بين الطغيان والعدل فى ظل الشعب وحماية الله . . . » .

بدء الاشتراك العملى

وقد بدأ اتصال النديم المباشر بالعرابيين حين قرر شريف باشا رئيس الوزراء الذى اختاره العرابيون بدلا من رياض باشا ، نقل آلاى عبد العال حلمى إلى دمياط ، وآلاى عرابى إلى الشرقية وذلك رغبة منه فى تخفيف ضغط الحزب العسكرى على الحكومة وليحقق المبدأ الذى تولى الوزارة على أساسه ، وهو إبعاد الجيش عن السياسة ، جهد المستطاع ، وقد وافق الجيش بعد أن تأكد من صدور قرار بانتخاب المجلس النيابى .

وكان سفر الآلايين إلى مقرهما الجديد ، فرصة للمظاهرات الوطنية ، التى تجلت فيها حماسة الأهلين وعواطفهم نحو الجيش ، ونجد فى وصفها وما ألقى فيها من الخطب ، صورة حية للتطور السياسى الذى ظهر فى نفسية الشعب ، وأثر عبد الله النديم فى إثارة شعور المواطنين فى خطبه إذ إنه رافق كلا من الآلايين على حدة فى سفره .

كان آلاى عبد العال حلمى بك هو السابق بالسفر إلى مركزه فى ١٤/١٠/٨٨١ وقد ودع فى محطة القاهرة وداعاً رائعاً ، وكان أحد

أعيان القاهرة وهو مصطفى العنانى بك ينثر الورد على رؤوس العساكر ويسقى الناس شراباً مسكراً .

وحضر محمود سامى البارودى باشا وزير الحربية يودع الآلاى المسافر وصحبه عرابى بك وتبودلت الخطب الحماسية فألقى عبد الله النديم خطاباً موجها إلى الضباط والجند بدأه بقوله « حماة البلاد وفرسانها » .

وتضمن الثناء على الجيش ورؤسائه لما قاموا به من دك صرح الظلم والاستبداد ، وإحياء روح العدل والحرية ، ونشر علم الاخاء والمساواة والاتحاد ثم قال مخاطباً الضباط والجند الذين جاءوا لتوديع المسافرين (وقد اعتزم السفر معهم) — أخوكم الحر يودعكم ويسير بإخوانكم إلى دمياط ، فاجعلوا عروة الود وثيقة ، ولا تحلوا حبل الاتحاد ، الذى جاهدتم الأنفس فى إحكامه إلى أن قال (ومن محاسنكم التى تفخرون بها ويعرف لكم بها الفضل طاعتكم ، لأوامر الحكومة وامتثالكم لارشاداتها) ثم ختم خطابه بقوله — وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادية عند النوازل أن يقال (مات شهيد الأوطان) فنادى الجميع (رضينا بالموت فى حفظ الأوطان[1]) .

ثم نهض السيد حسن الشيمى صاحب جريدة المفيد ، فألقى

---

(١) مذكرات عرابى ٢٥٩ .

خطاباً آخر فى هذا المعنى ثم نهض عبد العال بك حلمى ، وألقى خطابا وجيزا ثم استمرت مظاهر التكريم والتوديع ، إلى تحرك القطار المقل للآلاى ، وسار قاصداً دمياط ، فلما وصل إليها ألقى السيد عبد الله النديم خطابا حماسيا مدح فيه الجيش ورؤسائه وقال أنهم هم الذين أنقذوا البلاد من صور الاستبداد .

وفى ٦ أكتوبر سنة ١٨٨١ سافر عرابى وصحبه عبد الله النديم — وبعد أن ألقى الأول خطابه على مودعيه كما سبق قدمنا ، ألقى بعده النديم خطابه المشهور الذى افتتحه بقوله : سادتى وإخوانى وآبائى :

« خبرونى عن محفلنا العظيم المشتمل على الآلاف المؤلفة ، من الناس ، فى أى أرض هو وبمن احتفل ...... » ثم تحرك القطار فى منتصف الساعة الحادية عشر : قاصدا مدينة الزقازيق واستقبل عرابى وصحبه وجنده فى المحطات بمظاهر الفرح والسرور والتكريم ، وكان عبد الله النديم يخطب فى الناس فى كل محطة — واستمرت مظاهرات الاحتفالات حتى بلغ القطار محطة الزقازيق . فنزل عرابى من القطار ، وحيا جميع المستقبلين وألقى فيهم خطبة حماسية واستأنف القطار سفره إلى رأس الوادى حيث كان مركز الآلاى — وهناك دعاه أمين بك الشمسى لوليمة احتفاءاً به وألقى عرابى فيها خطبة وطنية ، ثم وقف عبد الله النديم وألقى خطبة حماسية تعالى فى أثنائها الاستحسان للنديم .

خطيب الثورة العرابية

ولما أعلن الدستور وصدر مرسوم بصدوره فى ١٨٨٢/٢/٨ أقيمت الاحتفالات بالعاصمة ابتهاجا بهذه المناسبة وأهمها حفلة أحمد بك أباظه وحفلة جمعية المقاصد الخيرية وحفلة النائبين أحمد محمود وإبراهيم الوكيل (سنأتى بذكر هذه الحفلات بالتفصيل فى الباب الخاص بالخطابة) وكانت مجالا لخطابة النديم وفيها بلغ أوجه فى الخطابة حتى سمى بعدها خطيب الثورة العرابية فكان هو الذى يفتتح الخطابة فى كل احتفال، ثم يقدم الخطباء ويقف بعد كل خطيب معقبا على قوله، شارحا أو متمما لمعانيه، أو مستطردا إلى ناحية أخرى من النواحى. يقف فى الحفلة الواحدة أكثر من خمس مرات مرتجلا، الكلام، متنقلا إلى ما شاء من المواضيع، معانيه فياضة، أراؤه متجددة، لا يكل ولا يتلعثم حين حين يرتجل، يسمع صوته، فى نبرات قوية، وأقواله فى عبارات صافية، وتعينه على خطابته بديهته الحاضرة وقريحته المتوقدة، فكانت خطبه تأتى مطردة السياق، قوية القرائن، بليغة المعنى.

ولم نسمع فى تاريخ الخطابة فى العهد الحديث إلى يومنا هذا بخطيب مثله، بلغ فى قوته ومقدرته الخطابية لهذا الحد.

وكانت أغلب خطبه تدور حول معانى الدستور والاتحاد

وإكرام الأجانب وحسن معاملتهم والقيام بحفظ العهود ، وحسن الجوار والتمسك بمكارم الأخلاق ، وعروة الدين ، وشرح بعض آيات من القرآن الشريف .

جريدة الطائف :

ثم استخدم صحيفته التنكيت والتبكيت لأغراض الجيش وسماها الطائف كرغبة أحمد عرابي وجال بها فى ميدان المعارك ، يحمس القلوب ، ويقوى العزائم فى وقت الخطوب ، ويهول أحياناً فى أخبار الانتصارات حتى يقوى الروح المعنوية فى الجنود ويقتلع الخوف ، وآثار الهزيمة من نفوسهم ، فكانت لسان العرابيين والمترجم عن آرائهم .

مبدأه فى الثورة العرابية :

لم نعرف للنديم رأيا معينا تجاه الثورة العرابية من حيث السياسة المحركة العليا لها ، سوى أنه كان من كتاب المعارضة التى سبقت حدوث الثورة ، وكان منادياً ومؤيداً لأهداف الحزب الوطنى ، وداعيا لمبادىء الزعيم جمال الدين الأفغانى ، ناشراً ومعلماً إياها للشعب ، مستغلا كل مواهبه الأدبية فى ذلك المضمار ، من كتابة وشعر وزجل وأحاديث ، وكان الأفغانى معلم

الخاصة والطبقة المثقفة والنديم معلم الشعب والطبقة العامة .

ولما اتحد الحزب الوطنى مع العسكريين ، أحدث اتحادهما كتلة جديدة تسير الأمور ، أطلق عليها الثورة العرابية ، ولم يعرف رأى خاص للسياسيين بعد ذلك سوى أن العسكريين هم الذين كانوا يتولون توجيه الأمور حسب رغباتهم .

ولم نسمع رأيا خاصاً للنديم من ناحية السياسة التوجيهية للثورة ولكنه كان بمثابة (وزير الدعاية) فى ذلك العهد ، فكان يعبىء الشعور الوطنى فى الأهالى أينما حل لمساعدة العرابيين ، مما كان له أكبر الأثر ، فى سريان نار الوطنية إلى قلوب المواطنين جميعاً ، فهبوا يناصرون الثورة بما ملكوا من أرواح ومال وعتاد ، وقد أظهر الشعب فى هذه الحقبة من تاريخه ، من شعوره وأعماله ، ما ارتفع بأخلاقه إلى ذرى الوطنية ، وكان النديم بحق خير بوق للثورة وللشعب وللجند .

وقال جون نينيه (السويسرى فى مصر) « كانت ترد كل يوم إلى كفر الدوار إعانات الشعب من المال والقمح والشعير والبقول والسمن والخضر والفاكهة والخيل والماشية وقد أبدى أعيان الوجهين البحرى والقبلى شهامة عظيمة فى إمداد الجيش .

وتجلت حماسة الأمة للثورة وللحرب من إلقاء نفر من أبنائها من الخطب ، وما كتبوه من المقالات وما نظموه من الشعر ، وكلها

ناطقة بحرصهم على الحرية والدستور ونفورهم من الاستبداد والعبودية ، وقد كان فى مقدمة هؤلاء عبد الله نديم خطيب الثورة وكاتبها الأشهر وصاحب جريدة الطائف ترجمان الثورة ومرآتها ، والأستاذ الشيخ محمد عبده والأستاذ الشيخ أحمد عبد الغنى من علماء الأزهر والشيخ على المليجى والشيخ محمود إبراهيم خطيباً أسيوط والشيخ محمد أبو الفضل خطيب مسجد الحنفى والشيخ صميدة الدمنهورى والشيخ عبد الوهاب أبو عسكر والشيخ محمد فتح الله والملازم على غالب وغيرهم » .

ولقد أخذ عليه بعض الكتاب أن الثوار أخذوه قسرا وضموه إلى صفوفهم قهرا ، وهو لا يستطيع لهم ردا ، ولكن هذا القول عار من الصحة ولا يمكن الأخذ به ، لا سيما وأن القائل به أخوه أحمد سمير ، كتب ذلك والبلاد تكابد قسوة الاحتلال يحاول به تخفيف موقف النديم من شدة تحمسه للثورة العرابية ، والحقيقة التى لا مراء فيها ، أن أحدا لم يرغم النديم على انضمامه للعرابيين واتحاده القوى بحركتهم ، بل وضح فى النهاية إنه كان أشد من كثيرين منهم ، إخلاصاً للمبادىء الوطنية ،وارتفاعا بالزعامة السياسية .

أما النديم فعاش كريماً ، وجاهد مع العرابيين كريما وحرا ، يجاهر بما يعتقد به — واخفقت الثورة وكان هو على رأس قائمة

أقطابها والمحرضين لها ، فاختفى تسعة أعوام ذاق فيها ، من ضروب المشقة والألم أشكالا وألوانا كما سبق ذكره ثم قبض عليه فلم ينكر شيئا مما فعل ولم يتنكر لمبادئه ، فحكم عليه بالنفى ثم عفى عنه ، وعاد إلى القاهرة فى عهد عباس .

فعاد إلى مصر وكان يستطيع أن يجنح لمسالمة الاحتلال ، وكان وقتئذ فى إبان سطوته ويخلد إلى حياة الراحة والرخاء ، وبخاصة بعد أن قاسى المتاعب والأهوال فى عهد استخفائه وإن طلب منصبا من الحكومة مقابل مناصرته للاحتلال أو سكوته عنه ، لما ضن عليه اللورد كرومر بالمنصب الذى يضمن له اليسار طول حياته ، ولكنه آثر استئناف الجهاد ، ولو استهدف للاخطار فأنشأ مجلة الأستاذ وانتضى قلمه مرة أخرى ، ذائدا عن الحمى ، جائلا بقلمه فى آفاق الفكر الحـــر ، واستمر يصدر مجلته زهاء عام فكان انتاجه مدهشاً ، فاستثار الشعور الوطنى بعد الظن بأن الهزيمة قد أغفته ، واستعدى الوطن على الانجليز بعد الظن أنهم ملكوا زمامه ، وأمنوا نزوعه ضدهم ، ودعا الشعب دعوة حارة للاتحاد ، لمقاومة الاحتلال الذى يحاول تحطيم قوة الشعب بتفريق عناصره ، وتأليب صفوفه ، واثارة التنابذ والفرقة بين جماعاته .

(٥) مبدأه السياسى فى الأستاذ :

١ — دعا إلى جلاء الانجليز والسعى فى سبيل الاستقلال ، غير مشروط بقيد ، وكانت الصحف الوطنية فى عهده ، بعضها يطالب بتأييد الاحتلال والبعض يطالب بتأييد الخلافة العثمانية والالتفاف حول رايتها — أما هو فرغم تأييده الخلافة العثمانية بالقدر الذى يوطد به عرش الخديوية ، ويوقف السيل المنهمر من طغيان الانجليز ، فقد سبق جميع الزعماء المصريين فى تلك الدعوة الخالدة العظيمة وهى مصر للمصريين لا للانجليز ولا لتركيا (الأستاذ فى ١٨٩٣/٣/١٤) .

٢ — اصلاح الأداة الحكومية بتعيين رؤساء مصريين أكفاء محل الرؤساء الأجانب الذين يعملون لغير مصلحة البلاد ، وتعديل الأساليب القديمة المعمول بها حتى تصلح الأداة الحكومية ، وإذا قام الرؤساء المصريون بواجبهم على أكمل وجه ، ونفذت هذه السياسة بدقة ، أمكن تمصير المصالح ونجاح الحكومة فى القيام بواجباتها ، نحو رعاية مصالح الشعب ، والتوفر إلى جميع أنواع الإصلاح الداخلى التى منها توطيد الأمن الداخلى ، ثم تقوية سلطة الخديو ، وبعد ذلك لن تكون هناك مندوحة لبقاء الاحتلال البريطانى بالبلاد لأنه يتذرع بهذين السببين لتبرير وجوده ، وتصبح

الحكومة المصرية مستعدة للقيام بكل أعبائها وفى غنى عن الأنجليز (مقالته مستقبل مصر فى ١٨٩٣/٢/٧) .

٣ ـ دعا إلى الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى باعتبارهما مرتبطين بالدعوة الوطنية .

التربية السياسية الديموقراطية :

وضح النـــديم فى مجلة التنكيت والتبكيت فى عددها فى ١٨٨١/١٠/١٩ فى محاورة (نديم وتلميذه) الأسس التى يقوم عليها النظام النيابى وفوائده وكيفية الانتخاب والصفات الواجب توفرها فى الممثل النيابى ثم ضرب مثلا بسيطاً عن الفكرة الرئيسية للتمثيل ، بأن طلبة المدرسة يستطيعون انتخاب لجنة من بينهم تشارك إدارة المدرسة فى أعبائها وتشارك فى المعاونة فى النظام والترتيب والمشاريع الاجتماعية وقد جاء فيها (الشورى يا ولدى عبارة عن غرس أفكار ، فى أرض التبادل ، وسقيها بماء الحرية وخدمتها بيد الاعتدال، لينبت العدل ويزهر الحق ويثمر العمران).

وفى ١٨٨١/٩/٢٥ كتب عن الأخلاق القومية التى يجب أن يتمسك بها المواطن الصالح الذى يرعى كرامته وكرامة بلاده ، ويؤدى ما عليه من واجب ويطالب بما له من حقوق .

النظـام النيابى :

كان النديم صاحب الفضل والسبق فى إفهام المصريين أسس الحياة الدستورية الصحيحة ، والنظم الديموقراطية الحقة، بما لم يبلغه كاتب قبله (ومن الأسف الذى يحز فى نفس كل مصرى ، أن تغمر الأحداث تاريخ ذلك الكاتب العظيم وتنسى أقواله الخالدة وتتغافل الأجيال تراث عبقرى نبه الوطن ورسم له طريق الحياة البرلمانية الصحيحة منذ ستين عاماً ، ثم يقوم بعد موته برلمان وينتخب له نواب وشيوخ ، وتتحطم على عتباته المبادىء الدستورية ، وتخنق بين جدرانه صيحات الحرية والرأى النزيه والمعارضة النظيفة .

ففى مقاله الخالد بعنوان : (بمن أقتدى إذا اختلفت الآراء) فى العدد ٢٣ من الأستاذ ص ٧٦١ — بدأت مقدمته يرد على عنوان المقال وهو :

١ — اقتد بصديقك الذى يواسيك فى ضيقك ومحنتك ، ثم يتحدث عن العلم والعلماء وتشجيع العلوم والأخذ برأى العلماء والمجربين مع فقرهم ، وتجنب آراء عظماء البلاد ووجهائها ، لجهلهم المطبق ، فليس لديهم الرأى السديد ، ولا النصح المفيد .

٢ — دعا إلى نقد الحكام والكبراء فيما يصدر عنهم من أعمال دون إحكام رأى ، وإعمال وتمحيص ، حتى إذا كانت دوافعهم لهذه الأعمال الغيرة والإخلاص .

٣ — ثم يقترح (تنظيم الحكومة الشورية) وذلك بتنفيذ الآراء التي يوافق عليها نواب الأمة بعد البحث وتقليب الآراء وتناول وجهات النظر . قال : (لا ينبغي الاعتماد على آراء ذوي الشهرة ، بل يجب أن يكون الرأي الأخير نتيجة الشورى حتى يستخلص من تضارب الآراء وتضارب الأفكار قواعد لا تنقضها الحوادث ،وقوانين تلائم التابع والمتبوع ،وتبقى بها دعائم الدولة قائمة على أساس متين ، ولم يتوصل لهذا المقصود الحسن إلا باعتمادها على من يخوض لجج المنايا في حفظ وطنه ، من طامع في امتلاكه رغم ادعاء على أهله) .

لنقف قليلا لنرى ماترتب على اغفال العمل بهذا المبدأ الخطير في حياتنا البرلمانية الماضية ، كان أغلب نواب الشعب آلات في يد رؤساء الأحزاب ، لا رأي لهم إلا ما رآه زعماؤهم ، فأهمل بذلك النواب الواجب البرلماني الصحيح الذي انتخبوا لتنفيذه ، فساءت حياتنا البرلمانية وفشلت ، وما استطاعت أن تخيف ظالما أو ترهب معتدياً ، أو تحول دون الفوضى السياسية التي ابتلينا بها .

٤ — تكلم عن أسباب نجاح الحكم الديمقراطي في الغرب فقال :

(إنما ثابر الغربيون على العمل بالشورى وأخذوا يصححون الأغلاط ويراجعون الأخطاء ويتبادلون الجدل عن عزائم صادقة ،

حتى تربت الملكات ، وتصورت المطالب أمامهم بصور الواقعيات وما أوصلهم لهذه الغاية إلا اعتمادهم على الفضلاء والأذكياء حتى اضطروا الأغنياء والوجهاء لدراسه العلوم والفنون السياسية التى بها ترشحوا للدخول فى أندية الشورى ، وما زالوا يزاولون العلوم ويبحثون فى الأمن ، والدول ، حتى قبضوا أزمة الملك بعصبية قوية ووقفوا أمام ملوكهم ، حصوناً تقيهم الفتن الداخلية والغوائل الخارجية فما على الشرقيين لو جاروهم فى هذه الطريق . . . .

ولا يلام للدخول فيها ، أكثر من انتخاب العقلاء والفضلاء وانسلاخ أهل الذاتيات من التوجه إلى الوجهة الأجنبية ، وجمع الكلمة على توحيد المذهب الوطنى لتخرج من مضيق هذه المصيبة ، التى إأصيب بها بعض نبهاء الشرق من خدمة الأجنبى ولو بيع الوطن له .

ونستطيع أن نخلص من أقواله السالفة بالحقائق الرائعة الآتية :

١ ــ النيابة البرلمانية تقييد لا تقليد ، ودرس بحث وعمل وعناء ، للوصول إلى الآراء الحيدة والطرق السديدة لمنفعة البلاد ومصلحتها على ضوء حاجات الوطن ومطالبه فى حاضره ومستقبله . لا لهو وترف بالجد ، وزهو بالمنصب ، والعمل للحصول على على أكبر قسط من المنافع الشخصية ، والمكاسب المادية ، قبل نهاية المدة البرلمانية ، على حساب مصالح البلاد .

٢ — للنيابة مؤهلات وكفايات خاصة ، لا يرشح لها من كان عاطلا منها ، لذلك أضطر الأغنياء والوجهاء فى الغرب رغبة منهم فى الترشيح النيابى ، وقيامهم بتمثيل مواطنيهم فى البرلمان إلى دراسة العلوم الاقتصادية والسياسية التى تساعدهم على القيام بمهام رسالتهم الخطيرة (هل نفذ هذا فى مصر . . فى فترة الحياة النيابية السابقة ؟ — بالأسف . . كان المعول على نجاح النائب اعتماده على زعيم مشهور ، أو حزب له نفوذ . . فلا اهتمام بمصلحة الشعب الذى سيمثله ولا اهتمام بقدرته الشخصية على أشغال هذا المركز . . . ومن أجل ذلك فشلت حياتنا البرلمانية) .

٣ — تشرفت مراكز النيابة البرلمانية بالغرب بمن شغلوها فبعلمهم وحزمهم وإرادتهم القوية ووطنيتهم صدوا الظالمين ، وأرهبوا الخونة والعابثين من حكامهم ، وصانوا حقوق الشعب من عبث الملوك ، وكانوا حصونا للمبادىء الدستورية ، لذلك بقيت الحقوق مصانة والشعب فى أمن ، والحكومة قوية ، وأسلحة أعداء البلاد الخارجين مغلولة .

وليقف القارىء بتفكيره ، قليلا أمام روعة كتابة النديم فى أهم موضوع حيوى تقوم عليه أسباب القوة والحياة فى الشعوب الديمقراطية جمعاء .

كتب ذلك قبل قيام الحياة النيابية الأخيرة بعد دستور

سنة ١٩٢٣ وقبل تولى الملوك، وأعانته مواهبه أن ينقل آراء الغربيين ويعرضها بلغة الشعب إلى الشعب .

٤ — آثار النديم فى النواحى الإجتماعية

١ — الحرية الأخلاقية : —

لقد استبدت بهذا الكاتب أحاسيس الأسى والألم على ما أصاب القوم فى عهده ، من انحلال أخلاقى فظيع ، وانحدار إلى دركات الرذائل والموبقات فباتوا فى ليل داج ، مكبلين بقيود عاداتهم وأوهامهم ، لايدرون من أمرهم شيئا ولا يشعرون بمقدار الهوة العميقة التى يعيشون فيها .

فكان النديم النذير والداعية لكى يوقظ القوم من أوهامهم ويحاول إزالة آثار الخرافات والجهل عنهم ، حتى يستشعروا كرامتهم الإنسانية ، ويتخلصوا من عبودية الشهوات والمخدرات التى تمكنت منهم ، وقيدتهم ، وباتوا أسرى لها ، والعبودية الأخلاقية أوقع أثرا من العبودية السياسية ، فالشعب المحطمة معنويته ، المنحطة أخلاقه ، لن يقوى على رد اعتداء الغير عليه ولا التخلص من نير المحتلين . والحرمان من الحرية الأخلاقية هو حرمان الكائن الانسانى من أهم مقومات حياته الأدبية والفكرية ، وافقاده

تقدير المجتمع له ، فتكلم النديم عن جميع المساوىء الأخلاقية في عهده بحماسة جياشة ، وعاطفة قوية وله فيها كثير من المقالات والقصص الصغيرة والمحاورات العامية ومن ذلك ما كتبه في ٣/٧/١٨٨١ و ٣١/٧/١٨٨١ و ٢١/٢/١٨٩٣ .

إنها لمهمة شاقة حقا وعبء ثقيل ما اضطلع به ذلك الكاتب الوطني ، في محاولاته رفع مستوى شعب رسف في قيود الذل والاستعباد أجيالا طوالا ، فحرمته هذه القيود من طموحه وقبرت ملكاته وأخمدت مواهبه وحالت دون نمو الفضائل فيه ، وتركته نهب الرذائل والأمراض الأخلاقية ، تتربع في فكره الوساوس والخرافات ، فكتب في صحفه جميعها ، من نفثات قلبه وأنفاس ، صدره المتقد بنار الوطنية ، داعيا الأمة إلى أطراح مساوىء الماضي ، والبدء في نهج جديد لحياة شعارها الكرامة والوطنية ، تسمو إلى العمل المنتج ، والكفاح المثمر ، نظيفة من الأوشاب ، طاهرة من الرذائل وقديم العادات .

مقاومة الرذائل التي انتشرت في عهده :ـ

١ — الرذائل الجنسية :ـ كتب عنها كثيرا ، وكان قلبه حربا عليها ، وخصوصاً ما يحدث منها في المجتمعات وفي الحفلات ، ثم تحدث عن انتشار عادات السلوك الجنسي الشاذ المنافي لنظام الطبيعة ، وذلك في مقالته في ١٢/١٠/١٨٨١ ومقالته (بمجلس أنس)

فى ٨١/٦/٢٦ ثم دعا إلى الزواج ، وحض عليه باعتباره النظام السليم القوى ، لقيام الغريزة الجنسية فى دورها الطبيعى فى بناء الوطن ، وإنجاب البنين لتعميره ورفع قواعد مجده ، ولحفظ المواطن نفسه من العبث والتردى فى هوة الأمراض الاجتماعية ، وما يؤدى ذلك من حرمان الوطن من قوته وجهوده ، كتب عن ذلك فى ١٨٩٣/٢/٢١ .

٢ — الخمور :

انتشرت فى عهده المسكرات ، وازداد عدد الحانات التى يديرها الأجانب منبثين فى المدن والقرى والأرياف ، يستثمرون أموالهم فى تجارة محرمة ، ويجنون أرباحهم من اتلاف الثروات ، وتخريب البيوت العامرة ، وإرهاق الطبقة الفقيرة فلا يقوى دخلها المحدود ، على الجمع بين اتلاف المال فى المسكر والانفاق على العائلة ، مما يؤدى إلى ارتباك أحوالهم الاقتصادية ، واضطراب أمور معيشتهم . ولقد تحول كثيرون من الموظفين والملاك الزراعيين بعد وقوعهم تحت طائلة المسكرات ، إلى حالة تعسة ، من فقر وضنك وتلف فى الصحة وانخفاض فى المستوى المعيشى ، وتشرد لأعضاء الأسر ، وانهيار أخلاقى شديد . كتب النديم عن ذلك بإسهاب ، مصوراً كل ما يحدث فى الحانات

وما يصيب الناس من أذى ، بإقبالهم على الخمور ، فكتب لجميع طبقات الشعب ، باللغة والأسلوب الذى يناسب كل طبقة ، ووضح ذلك فى مقالاته « روى عن أمه التخريف طفلا » فى ١٨٨١/٦/٢٦ . وفى مقالته « حفلة دستور » صحيفة ١٢١ بمجلد الأستاذ ، تحدث عن ارتباط المسكرات بالجرائم الجنسية وازدحام مواخير البغاء بمرتادى الحانات وفى صحيفة ١٣٢ تحدث باللغة العامية فى سلسلة محاورات « حنيفة ولطيفة » عن أثر المسكرات فى تحطيم بناء العائلة المصرية . وكتب فى هذا المعنى أيضاً فى ١٨٨١/٨/٣٠ وتكلم عن أحياء البغاء بالتفصيل فى ١٨٨١/٦/٢٦ من مجلة التنكيت والتبكيت بعنوان « حوادث خارجية » معددا أصناف الناس الذين يفدون إليها ، من طريدى العدالة وحثالة المجتمع والمجرمين ، ثم يشبه هذه الأحياء بمملكة الجنون التى تقع على شاطىء بحر الجنيهات ، وتحد بالخمور غربا وبالعاهرات شرقا ، وبالمضلين جنوبا (وبالمخرمين) شمالا وأول من اختطها ملك الضلالة والجهل — بهذا التشبيه البديع ، حدد النديم أشد المصائب فتكا ببنيان المجتمع المصرى فى ذلك الوقت ، وهى الخمر ، النساء ، والمخدرات ، وكلها تؤدى إلى الإجرام من سرقة وقتل وانتهاك عرض وتبذير ، وهدم للأسر المحترمة ، وقد طالب بإلغاء البغاء وعاب على حكومة متمدينة متحضرة دينها الرسمى الإسلام إباحة

ارتكاب الفحشاء للمومس وإتيان المنكر وممارسته بترخيص حكومى ، ثم طالب بحل مؤقت لتخفيف آثار هذه الأحياء، بإبعادها إلى أطراف نائية من المدينة حتى لا تؤذى عيون الشرفاء بالمناظر القبيحة المبتذلة ، ولا تؤذى أسماعهم من الألفاظ النابية والتعبيرات النذية ، ثم يصور لنا صوراً واقعية عن مجالس المجون (والعربدة) التى كانت شائعة فى ذلك الوقت فى مقالة « مجلس أنس » المنوه عنها فى موضع سابق ويصف مايدور فى هذه المجالس، ثم ينتهى بذكر المبالغ الباهظة التى تنفقها البلاد فى هذه الرزائل ويقول (تجارة بضاعتها المسكر ، والمخدرات والنساء والولدان والعادات السيئة والمكيفات التى لو جمعت لأمكن بها إحياء الصناعة وازدهار المعارف) .

٣ ـ المخدرات والمغيبات :

كتب كثيرا عنها فى مقالاته السياسية والاجتماعية وأحاديثه العامية وقصصه البسيط السهل ، الجيد الحبك ، القوى الأداء ، البليغ المرمى ، وقد وزع فيها من روحه المشفقة على ما يعانيه المجتمع من بطش المخدرات . لقد طاف بأماكن تعاطى هذه المخدرات (الغرز) وتحدث عنها حديث خبير ، ولولا أننا مؤمنون بنزاهته ، وأخلاقه لقلنا أنه كان أحد روادها ، لدقة ما وصف ، ولروعة ما رسم ، ولوضوح ما صور ، رأى الشعب يتمرغ فى حمأة عفنة ،

وحكامه لاهون ، والطبقة المتعلمة سادرة فى تجاهلها حالة طبقة كبيرة من الشعب ، تعيش فى ظلال موت أدبى ، لا يبين منها شىء من معالم الحياة والوجود إلا أجساد ضامرة ،وأوجه شاحبه ، لا تعى ولا تشعر ، ولا تعمل ولا تفكر ، وقد ذكر عن هذه الآفات فى مقالاته فى ١٨٨١/٦/٦ (سهرة الانطاع) وفى ١٨٨١/٦/١٩ (أنواع الحشيش وأوصاف استعماله) .

لقدهال هذا الكاتب الوطنى ماوصل إليه الناس فكانت كتابته من أنفاس صدر تحز فيه الحسرة على طبقة من موتى الأحياء ، يعيش أفرادها لغرائزهم ، وقد انحطت مداركهم ، حتى أنهم يحتملون الذل والعبودية لكيوفهم بارتياح ورضى ، كأن ما بقيت فيهم حياة ، ولا جرت فى أوصالهم دماء ، وما استشعرت نفوسهم بصيصاً من كرامة ، لذلك صبروا على ظلم الطغاة ، يستنزفون دماءهم ويستحلبون خيرهم ، ويستغلون إنتاجهم دون أن يحركوا فتيلا .

٤ ـــ تقليد الغربيين :

كتب فى ٣١ / ٧ / ١٨٨١ وغيره من المقالات ، منددا بتقليد الغربيين فى مساوئهم من مجون وخلاعة واختلاط النساء بالرجال بغير ما تحفظ ولا فضيلة ، وقد وجه كلامه فى هذه المقالة إلى الطبقة المثقفة، التى تهافت أفرادها على تقليد الغربيين فى مساوئهم، وإدخالهم

كثير من الألفاظ الأجنبية فى حديثهم وتركهم العادات النافعة ، ومحاسن الأخلاق الشرقية كأن فى ذلك تأخيرا لهم ، وكتب فى مقالة « جهل العواقب جالب العواطب » فى ٣/٧/١٨٨١ منحياً باللائمة على من يظنون أن إهانة الوالدين ، والتشدق بالألفاظ الأوربية فى الحديث وتحقير كل ما هو مصرى ، والتمسح بما هو أجنبى ، ومصاحبة الزوجة فى الجامع والطرقات والدخول بها محلات الرقص ومجالس الشبان ، (ان هذا) نوع من التمدن . . . ثم قال « إنما التمدن الحقيق بالاشتغال بالعلوم ، ومعرفة الإنسان واجبـــاته وحدوده ، ومحافظته على العادات الجميلة ، والتمسك بمعتقدات طائفته وترك الخرافات » .

٥ ـــ الجهل والعادات السيئة :

وكان من دقة النديم فى ملاحظته ، ما ساعده أن يعرض علينا نماذجا من أفراد مصريين ، من مختلف الطبقات ، قد استشرى بهم الجهل ، حتى أنهم لا يدركون من أمور الحياة أبسطها ، ومن وجهات النظر أوضحها ، فكتب فى ٢٣/١١/١٨٧٨ بجريدة التجارة مقال « العوام وما أدراك ما العوام » يذكر فيه تصرف شائن لأحد العوام فى إحدى الحفلات الخـــيرية وفى صحيفة (التنكيت والتبكيت » بتاريخ ٦/٦/١٨٨١ و ٣/٧ و ٣١/٧/١٨٨١

عرض أمثلة مختلفة لألوان من الجهل الذى استحوذ على الناس ، انتزعها من الحياة الواقعية فى عهده ، فروى لنا قصة فلاح جاهل مهتما باستماع قصة عنترة من أحد المنشدين ، وفى أثناء استماعه يبلغ به التأثر المدى ، كأن ما يسمعه حقيقة واقعية ، وعن مأمور جاهل لا يجيد كتابة طلب لرئيسه بلغة عربية سليمة فيكلف كاتبا صغيرا عنده بكتابته . ثم يتحدث عن العادات القبيحة التى درج الناس عليها فى أفراحهم من الاكثار من الطعام فى الولائم والأفراح ، من غير حاجة أو ضرورة ، والاستدانة بالفوائد الباهظة فى سبيل مظاهر تافهة ، كان يمكن العدول عنها ، ثم يحبذ استعمال العادات الجميلة التى فقدناها وهى عادة « النقوط » وهى عادة تعاونية تغنى عن الاستدانة لتكاليف الزواج ، ثم يتحدث عن التقليد الأعمى فى قصة طريفة ، عن رجل غنى جاهل ، لا يجيد القراءة والكتابة ، ومع ذلك فقد اقتنى فى بيته مكتبة فخمة ، ملأها بالكتب المختلفة الحجوم والألوان ، واعتنى بنظافتها وتنسيقها ، مع أنه لا يستطيع قراءة أى كتاب منها ، إنما فعل ذلك تقليدا لأحد أصدقائه الأغنياء .

الارتباط ما بين الوطنية والأخلاق والاقتصاد :

كتب النديم فى ١٨٨١/٧/١٧ بمجلة التنكيت مقالا عنوانه « متى يستقيم الظل والعود أعوج » ، وقد تضمنت هذه المقالة ما يأتى :

(ا) ضعف المصريين بأسباب الشقاق وعدم الاتحاد .
(ب) اقتداء الفقراء بالأغنياء وهم أسوأ ما يكون .
(حـ) الانصياع وراء الملاهى والشهوات دون حمية وطنية .
(د) رواج تجارة الأجانب فى الخمور وانتشار الميسر والمراقص .
(هـ) تقليـــد الأجانب فيما لا يجدى كالتفنن فى المآكل والمشارب والملبس (المودات) وهذا كله يشجع الصناعة الأجنبية ويؤدى إلى بوار الصناعة الوطنية . . . ثم يقول « إن تهافت المصريين على تقليد الأوربيين ، هو الشعور بالنقص فى المصريين ، كنتيجة للاحتلال طوال السنين والقرون ، وانعدام الوازع الأخلاقى ، وتهافتهم على الرذائل والفجور والآثام ، تهافتا أضاع معالم الأخلاق الشريفة ، والروح الوطنية العالية ، والمثل العالية من دين ووطنية ، كل ذلك جعل عقولهم خالية مما يملأها ، وقلوبهم خاوية من معين لا ينضب من الإيمان بعزة الأوطان ، لذلك وجدت العادات الأجنبية ، والتقاليد الغربية والرذائل التى وفدت من الخارج من قلوبهم وأفكارهم ، أرضا خصبة تنمو وتترعرع فيها وبذلك تأثر الاقتصاد الوطنى ، لأن الفائض من الثروة الزراعية لم يكن يستغل لفائدة الوطن وأبنائه ، وإنما ينفق ليضيع إلى غير رجعة ، على موائد الميسر وأماكن الفجور وأغراض الشر . . . وموائد الخمر والراقصات . . . » . وفى هذه المقالة نستطيع معرفة

قوة إدراك النديم وبراعته ، فى الوقوف على أسباب ضعف الشعور الوطنى ، ومركب النقص الذى تكون فى بيئة الشعور المصرى من أثر توالى احتلاله والضغط على حريته ، ثم محاولة المصريين تعويض هذا النقص بالانكباب على تقليد الأجانب فى انحدارهم الأخلاقى وتأثر الاقتصاد الوطنى بذلك .

٢ — الحرية الفكرية

١ — كرامة الفرد :

بين النديم لمواطنيه أن الإنسان لا يستطيع أن يفيد مجتمعه ، ويخدم بلاده ، خدمة مثمرة ، بفكره وعمله ، ما لم يتمتع بالحياة فى مجتمع حر يشعر بقيمته ، ويقدر رأيه ، فيستطيع أن يعبر فيه عن رأيه بصراحة ، دون خشية أو لوم ، ولقد نادى بذلك فى وقت ضاعت فيه قيم الناس ، وما كان يحسب فيها لأى امرىء حساب ، فالحكام والأمراء هم السادة ، والرأى لهم ، وعلى الشعب طاعتهم دون اعتراض . يقبض على شخص ما بدون اتهام ، فلا يملك أن يطالب بتحقيق أسباب القبض عليه ، بل يكفى أن يقول أحد الحكام كلمة واحدة ؛ وتكون فيها الكفاية لكى يزج بيزىء فى السجون ، بل وينتهى الحال به إلى الموت . وكان الخديو إسماعيل والأمراء

يسخرون الألوف من المزارعين ، للعمل فى مزارعهم وأعمالهم دون أجر ودون طعام ، ولم تكن هناك وسيلة للتفاهم بين هؤلاء المساكين ورؤسائهم سوى الكرباج والسوط . . . .
ثم بعد ذلك ليقع من يقع ، وليمت من يمت ، ضحية الضرب أو المرض أو الجوع أو الاجهاد . ولتسمع مصر النائمة فى غمرة الظلام وسكون الظلم المخيف ، صوتاً صادراً من مصرى ما كان وزيراً خطيراً ولا أميراً عظيما بل شخصاً من العامة ابن خباز فقير ، يبعثه فى الأمة منيراً لها طريق الشعور بالكرامة والحرية موضحا لها قيمة الفرد وحقوقه كتب (فى ١١/٨/١٨٨١ بعنوان وحشة نديم لأحد أبنائه) ملقناً الشعب مبادئ النهضة بإنسانيته المظلومة (لا تغتر من الكذب ، ولا تهوى الخيانة ، ولا تمدح الفجور ، ولا تستكين وتخشع ، ولا ترضى بالظلم والحيف ، ولا تضيع شيئا من حقوقك ، ولا تعظم إنسانا فوق حده ، ولا تمدحه بما ليس فيه ، لاتتملق ولا تتهاون فى شرفك ، ولا تمل مع الباطل ، ولا تسعى معه فى الفساد ولا تساعد تابعاً على سرقته ، ولا تهمل شيئاً عما عهد إليك ، وكن صادقا حافظاً للاتحاد ، لاتكن نماما ، ولا ساعيا فى فتنه ، ونفر من الشر ، وتجانب أهل الإفساد والفتنة وأهل المظاهر ومحبى ذواتهم ، واترك من يرى قدره فوق قدرك ، ونفسه أعلى من نفسك واحترم العظيم احتراما لايسقط مروتك ،

وبجل العالم تبجيلا يزيدك رفعة ، ووقر الشيوخ وارحم الصغار واحفظ عهد الإخوان ، واخضع للوالدين). جمل موجزة ، وعبارات متماسكة وعظات بليغة ودرر منثورة ، وسطور تحوى فى طياتها أروع المبادئ وأكرم المثل . ثم يتحدث عن شجاعة الرأى وعدم التملق والتذلل للناس ، ولقد كان وهو فى حياته ، مثلا أعلى لحرية الرأى وقاسى فى سبيل ذلك النفى والاضطهاد ، وكان طريق حياته شاقا مليئاً بالمتاعب والآلام ، وكان يمكن أن يرصف بالزهور والرياحين ، ويحفل بالغنى والثراء ، لو عرف التملق والرياء لقلبه سبيلا ، وقد نشر يوما فى مجلة الأستاذ « صحيفة ٧٠٣ » اعتذاراً لعدم نشره قصائد واردة للمجلة فى مدح رياض باشا رئيس الوزراء ، ولمدح مدير البحيرة قائلا (ان كثرة المديح مثبطة للهمم لاعتماد هؤلاء على ثقة الناس بهم ورضاهم) . وكتب فى الأستاذ عدد ٣٣ صحيفة ٧٦١ داعياً إلى عدم الاحتفال بآراء الأغنياء والكبراء وأخذها دون بحث ، خوفا من مراكزهم أو رهبة منهم ، ويجب تقدير آراء العلماء الصالحين ولو كانوا فقراء ، ثم تكلم بعد ذلك عن الشجاعة الفكرية وإعلان الرأى بشجاعة صحيفة ١٠٩ من « التنكيت والتبكيت » فى مقالة (اتبع الحق وان عز عليك ظهوره) فيقول فيها : (جاهر برأيك مهما كانت الظروف والأحوال تدعوك

إلى عكس ذلك ، فلا تبالى بايذاء أو ظلم أو كذب فى سبيل رسالة الأخلاق والفضيلة) .

(ب) التحرر من الخرافات :

الشعب الناهض ، الصاعد قدما إلى مراقى المجد ، والتقدم الفكرى والعلمى هو ما اتخذ أفراده فى تفكيرهم الأسلوب المنطقى ، وربطوا بين المقدمات والنتائج وبين العلل ومسبباتها ، ثم آثروا بعد ذلك هذا الأسلوب فى طرائق معاشهم ، وتوجيه أعمالهم ، وتصرفاتهم فى أمورهم الخاصة والعامة ، وقوموا أفكارهم وتقاليدهم وعاداتهم على أساس هذا النهج ، فتجدهم يهتمون بالعلوم الحديثة وترقية الصناعة والتوسع فى الزراعة والأخذ بكل ما يوسع آفاق التقدم الاقتصادى والعلمى ، واعتمدوا على المنطق والبرهان فى تأييد كل رأى ، وتحبيذ كل مشروع ، وربطوا بين المقدمات والنتائج فى كل شيء .

لذلك دعا النديم الكاتب الملهم ، الشعب المصرى بأن ينطلق فى أثر الشعوب المتقدمة فى الحضارة ، مجاريا إياها ، فى أساليب التفكير والحياة ، وترك الخرافات والعقائد السقيمة وأساليب الدجالين ، ومدعى الولاية ممن لا نجد فى أعمالهم منطقا معلوما . أو أساساً مقبولا ، وهنا نقرأ له فى مقالة من أروع كتاباته فى

التشكيت فى ١٠ / ٧ / ١٨٨١ مدحضا خرافة النجم ذى الذنب ، التى انتشرت فى عهده ، رادا الناس إلى مناطق الحقيقة ، آخذا بهم من عالم الخرافات والأوهام ، الذى لبد جو أفكارهم بسمومه وغيومه . . . فقال (يا بنى الشرق اين أحلامكم العظيمة ، وذكاءكم البديع ، كفاكم من العار فقد الثقة فيكم وعدم الركون إليكم فى أعمال وطنكم فضلا عن الغير ، كفاكم ما رميتم به على ألسنة الجرائد الأفرنجية بل وبعض الوطنية عن بعدكم عن مدارك العلوم والصناعة والإدارة ، بل البعض يفضل الحيوان الصامت عليكم ... كفاكم ان اشغالكم وأمتعتكم وأثاثكم يقدمها إليكم الغربى ، ويستنزف بهـــا ثروة بلادكم وأنتم لا تشعرون . كفاكم أنكم لا تتوصلون إلى العلوم الصناعية والرياضية إلا بتعاليم الأجنبى وأنتم غافلون ، كفاكم أنكم اتبعتم الخرافات حتى فسدت أخلاقكم وتكدرت أفكاركم وصرتم لا تصلحون لإدارة أموركم إلا بعد طهارة أخلاقكم التى أفسدها التحريف وأنتم به راضون . . . . كفاكم انكم صرتم فى البيوت المتهدمة والحارات القذرة ، ولا يسكن القصور ويتمتع بنزهة البساتين إلا من عظم بما لديكم وأنتم نائمون ، كفاكم انكم تمرون فى الطرقات مشاة على الأقدام والعربات تشردكم على اليمين وعلى الشمال ، وما بها إلا من عظم بجده ونشاطه مع اختلاف الأسباب وأنتم فى باب التقاعد واقفون ،

تتألمون من الفقر وأنتم له جالبون . . .أرى فعلة باريس فتحوا صندوق اقتصاد فنما وأثرى حتى صار أعظم بنك يوثق به ، ونحن نقتصد فى المعاش ونتوسع فى الخمور والحشيش والقمار ، حتى فتحنا بنوكا ولكن لغيرنا ، وأضعنا الصناعة ، وصرفنا أموالنا فى شراء ما يلزمنا ، فأدرنا عدة معامل ولكن فى غير مملكتنا . . . . . . فمع اختلاف القلوب وفساد الأخلاق ، والانكباب على الملاهى والسقوط بالتخريف ، والاشتغال بالمنجمين والرمالين والدجالين والمتكلمين بالضمير ، وأهل الأوفاق والطوالع والخواتم المجربة ، والأنفة من المعارف وأهلها ، كيف نرجو الصلاح والإصلاح ؟ ورد ثروة البلاد لأهلها ، وتعد هذه المقالة من أروع مقالاته التى يصدر فيها عن حماسة قوية ودعوة وطنية مخلصة ، لبعث الفكر المصرى وتطهيره من مخلفات الأجيال وإزالة ركام الماضى من عقائد وأوهام ، والدعوى إلى النهوض الاقتصادى بانشاء المصارف بدلا من تخزين الأموال ، واستغلالها فى التجارة بدلا من استغلالها فى المخدرات ثم قال فى ١٨٨١/٦/١٩ بعنوان (خذ من عبد الله واتكل على الله) محذرا فيها من الاعتماد على المنجمين والالتجاء إليهم وتطبيق أقوالهم — وفى ١٨٨١/٨/٢١ بعنوان (أماتك من سلمك للجهالة) يتكلم فيها عن الآلام التى يعانيها الناس من اعتمادهم على الدجالين فى علاجهم ، وحل مشاكلهم ثم يتكلم عن جماعة

مدعىّ الولاية ومظاهرهم فيقول : « كل من لبس (طقية) من الخوص أو حمل عكازة خضراء ، أو أصابه شلل فى أحد الأعضاء ، أو مصاب بضياع أنفه بواسطة الزهرى أو بأصبع عوجاء أو يد صغيرة أو له (رياله) أو بلسانه لكنه ، حظى باعتقاد الناس فى ولايته . . . كما تحدث عن أحدهم المدعى أبو مسلم الذى كان مقيما بميت غمر ، فقد صنع له بيتا ، صغيراً وحفر بركة ، وأشاع أن ماءها يشفى من كل داء ، فهرعت إليه الناس من كل بلد حتى ضاقت ميت غمر بالوفود ، وكان يعطى الإبريق بـ ١٠ قروش ، ويأخذ الخادم ١٠ قروش و ١٠ قروش أخرى ثمن البن ، ونذر الشيخ ١٠ قروش ثم يظهر التعفف ، ويقول إنه يعالج الناس ابتغاء مرضاة الله ! ، فهل بمثل هذه الجهالة نضارع الأمم المتمدنة ، وترجوا اصلاح البلاد ، وحفظها من أفكار الدول المتقدمة المشتغلة بالمعارف آناء الليل وأطراف النهار . وفى مقالة (سلطنة التخريف) فى ١٨٨١/٨/٧ يصف فيها مشهداً غريباً ، عن ازدحام الناس فى محطة دسوق ، لتقبيل القطار المقل لامرأة تدعى الولاية ، وإقبال الناس حولها يقبلون يدها . . . ثم يذكر الجمل التقليدية التى كانت ترددها للناس ويرددها أمثالها من مدعى الولاية . . . مستورة . . . سالكة . .

أشيا معدن . . . قدامك خضر ووراك خضر . . . الله يحن عليك . . . فاضل عليها عقده . . . أرمى حمولك على المتولى . . . . ربنا يجازى أولاد الحرام . . . . شيخ لله . . . . ياسيد روح سرى معك . . . الخ وهكذا يخضع هؤلاء المخرفون السذج والجهلاء لسلطانهم ونفوذهم ، ويقضون على حرية تفكيرهم .
ثم يختم النديم مقاله قائلا (لقد أصبحنا أقل الأمم قدراً ، وأخلاها من العلم ، وأمكنها من الجهل ، وما أبعدنا من العلماء) وقد تحدث فى مقالة (نهاية البلادة) فى ١٨٨١/٧/٣ عن مضار التواكل والتخاذل وعدم السعى والاجتهاد ، اعتمادا على المقدر والمكتوب ، ووضح فكرته بقصة صغيرة ، سهلة المنال ، واضحة المعنى عن فلاح ساذج سطا عليه أحد اللصوص ، فلم يحرك ساكنا اعتمادا على فكرة المقدر والمكتوب .

الوطنية العملية (الخدمة الاجتماعية)

كيف تؤثر الوطنية الحقة فى سلوك الناس فيما بينهم ؟ وما هدف المواطن الصالح من توثيق العلائق الاجتماعية بينه وبين مواطنيه ؟ كيف تعلو بالوطن وتخدم بنيه وترفع دعائم الاتحاد مشيدة عالية ؟ هذا ما أجاب عنه النديم الكاتب العبقرى

فى ١٨٨١/٧/١٠ فى مقال (كيف ظهرت وأتا لك بالمرصاد) يحض فيها على التواصل والتراحم بين الناس والتعاون الوطنى بين القوى والضعيف، والغنى والفقير، ويدعو لمجتمع راق تسوده المحبة والتعاطف والوطنية العملية الرشيدة، فما الوطنية بألفاظ تتشدق بها الألسنة، أو عبارات تلوكها الأفواه دون أن يكون لها أثر عملى فى حياتنا الواقعية وعلاقاتنا مع الغير قال فيها «والوطن وعزته، والجنس وشرفه، والأمة ومجدها، إنك فى حياتك من الهالكين وفى سعيك من الضالين، أى قوة ترجوها إذا قطعت عضدك أى أخاك، وأى ثروة تبلغها إذا عطلت بواسطتك أى مواطنك، وأى تقــدم توده إذا قفلت بابه؟ هلا نظرت إلى الفقير فأعنته بما يحفظ به حياته! والجاهل فهديته سواء السبيل والمجــد، وساعدته على نجاح أعماله... لو تأملت أيها المدل بنفسه هذه النصيحة، وأنزلت نفسك منزلة فرد من أفراد الأمة وبحثت فيما يطهر الأخلاق ويوصل الأمة إلى النجاح، وإدراك معانى السياسة، حتى يقف كل عند حده ويعرف حقوقه، لكنت من الذين رأوا لذة حياتهم فى حفظ بلادهم وبث روح التمدن فيها. وكتب فى ١٨٨١/٦/١٩ فى مقال «تسمية البهيم بالمتوحش ظلم من الإنسان» تسلق فيها على هذا البيت من الشعر.

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذا
ظمئت وأى الناس تصفوا مشاربه

وقصد بهذا البيت من الانتفاع بالأصدقاء والاستفادة من عشرتهم، وعدم مؤآخذتهم فى كل ما يصدر عنهم من فعال، لأن الطبيعة الإنسانية لا تستطيع أن تنأى كل النأى عن مواطن الخطأ ثم يدعو إلى توثيق هذه الرابطة الإجتماعية لنفعها للمجتمع ثم يدعو إلى التراحم والتعاون بين الناس وانتقل بعد ذلك إلى شرح عنوان المقال، كيف إننا نسمى الحيوان متوحشا، والفرق شاسع بين ما يعمله الإنسان مع أخيه الإنسان وبين ما يدعو به الحيوان، فالانسان فى الحقيقة هو الأجـــدر بأن يسمى بالمتوحش وذلك حين يقسو على أخيه بجمع المال وحرمان الفقير واليتيم والأرملة والمريض والمقعد والبائس وحين يسلبه ماله ظلما واغتصابا.

وحين يتهور ويطيش فى تصرفه حين :

(ا) مقابلة المسىء بإساءة مثلها.

(ب) مخاطبة الضعيف العقل بما لا يحتمله.

ويقول فى حسرة وتوجع مخاطبا ضمير الشعب :

(يا أيها الفرح بما ملكت يداه، ما أحزنك لو تأملت المضطر يتضور جوعاً والبائس ينتفض برداً، واليتيم لا قيم له برشده

ويعلمه ، والمريض المعدم لا مال له يطبب به نفسه ولا متاع يبيعه لينفقه فى حفظ حياته .

ثم يتبرم من القساة القلوب الغلاظ الأكباد فيقول :

أف لك وللمالك قل أو كثر ، فإنك تحجر على الإنسان قوته ومسكنه وملبسه ، بما تضيعه من اكتناز المال ، وما ظهرت إلا لتخريب البلاد من حصر النقد عندك ، وعدم تمكين الأفراد ، مما يبتاعون مايلزم لعمار الديار ، فتعسا لك ماحييت ، وسحقا لك بعد موتك ولا مرحبا لك إذا قدمت ، ولا سلام يصحبك إذا ذهبت .

يا أيها المدعى الوطنية وهو يسعى فى اضمحلال بلاده ، ويميل بجانبه إلى كل بعيدعنها ، ما أضرك على بلدك وأشدك على جيرانك واخوانك ، وأغفلك عن حقوق مظهر وجودك ، وسماء سعودك ومسرح روحك . . . لو علمت الوصية ودرستها على خبير بها لعلمت أن البلاد محتاجة إلى فكرك وقوتك والأهل مفتقرون إلى مالك) .

وهكذا يسمو تعبير النديم ، ويبلغ فى تحديده معنى الوطنية إلى أروع صورة ، لم يسبقه إليها أحد من قبل ، فيسرد الصفات والأعمال والمبادىء التى تدخل فى تحديد معنى الوطنية ، من رثاء وعطف على أبناء الوطن المنكوبين ، وإلى عدم حبس المال عن المنفعة العامة ، وإلى مساعدة كل مواطن محتاج أيا كان نوع حاجته

وكأني بالنديم يقول فى ايجاز : الوطنية أن تساعد المجتمع بكل ما تقدر عليه .

ثم عاد إلى هذه المعانى بعد ذلك بعشرة سنوات فى مجلة الأستاذ فكتب فى صفحة ٧٤٥ عن اسمى مبادىء الخدمة الاجتماعية فى الاسلام وذلك فى خطبة دينية وفيها شرح الآيات الآتية : ـ

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ، ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

الدعوى إلى مساعدة الجمعيات التعاونية والاكثار منها

ثم دعا إلى الاكثار من إنشاء الجمعيات الخيرية ، على غرار الجمعية الخيرية الإسلامية لإنشاء المدارس وتعليم أبناء الشعب وذلك فى مقاله (ثمرة الاجتماع) العدد السادس من السنة الأولى من مجلة التبكيت والتنكيت ، يدعو للتعاون فى سبيل الخير والمعروف ثم كتب فى العدد الصادر فى ١٨٨١/٧/١٧ يحث الأغنياء والموسرين على معاونة الجمعيات الخيرية قائلا :

ويا ذوى الثروة ، هلا هزتكم أريحية الإنسان فجعلتم للجمعيات أثرا تذكرون به ، وتنازلتم عن بعض مستغلاتكم التى لا تفقركم ولا تلجئكم لبيع الأطباق الذهبية ، ولا الأسرة الفضية ولا الظروف المجوهرة ولا الكاسات الملألأة ولا القصور الواسعة .

أليس الرجل منكم كالرجل منا ، فما بالكم لا ترضون بثلاثين نوع من الطعام ونرضى بالخبز والملح ، ولا تقنعون بالألوف من الجنيهات ونقنع بالقرش الواحد ، أخلقتم من الذهب وخلقنا من التراب ، أم ولدتم قابضين على الدنيا وولدنا عبيدا لكم ، أم نزلتم من السماء ونزلنا من بطون الأمهات ، ألا ترون أنكم تعدون بالأصابع فى بلادنا والفقراء هم الأمة)

ثم يتحدث للطبقة المثقفة من الشعب ، ناعيا عليها سكوتها عن تعليم الشعب وتخفيف آلامه الجسدية والفكرية ، حاثا على إنشاء المدارس لتعليمه حتى يستطيع مقاومة الجهالات والخرافات وينجو من الشرور المحيقة به فى مقالة (آفة السكوت) فى ١٨٨١/٩/٤

٤ — النهضة النسائية :

رقى المرأة وتعليمها هو أساس رقى الشعب ، وحجر الزاوية فى بناء مجده ، لأنها أم أبنائه ، وزوجة رجاله ، فهى التى تقدم للطفل منذ طفولته من دمها غذاء جسده ومن عقلها غذاء روحه ،

وحين تكون زوجة تملك على نواصي رجلها ، وتستطيع أن تنزع به إلى أشرف الميول ، وتدفعه إلى إسمى مجالى المجد الوطنى والأدبى وكم من عظيم وعبقرى وزعيم ، اعتز بفضل المرأة فى حياته ، واعترف بأثرها فى انتاجه وجهاده ، لذلك وجب التوفر على إعدادها بكل المؤهلات لقيامها بواجبها .

ولعل من الإنصاف للحق والتاريخ أن يذكر للنديم فضل السبق فى بعث أول دعوة لتعليم المرأة على صفحات جرائده ، بعدما ألف العلامة رفاعة بك رفاعة الطهطاوى أول كتاب تعليمى لتعلم البنين والبنات كما سبق أن ذكرنا . ولاشك أن كان لهذه الدعوة أثرها فى توجيه أفكار المواطنين ، فى وقت قد استشرى فيه الجهل وانتشرت فيه الخرافات والتمسك بالقديم بل فى وقت ضن فيه الزمان حتى بتعليم الرجل ؟

ويمكن تلخيص جهوده فيما يلى :-

تعليم المرأة :

دعا إلى تعليم المراة فى سن الطفولة وفتح المدارس لها لتدرس مع مواد المنهج الابتدائى ، الدين والتاريخ والتدبير المنزلى ورعاية الطفل .

ورتب فى مجلته بابا خاصا لتهذيب المرأة سماه مدرسة البنات ، تكتب فيه الموضوعات بأسلوب علمى سهل شيق ، على نمط

المحاورة تدور بين امرأتين (لهابة وست البلد) و (حفصة وبنتها سلمى) و (زكية ونفيسية) . . الخ وقد أغرمت النساء بهذا الباب إلى حد عظيم حتى انهن اعترضن على إلغائه حين فكر فى ذلك ، فعدل . وقد تضمن هذا الباب شرح النواحى الآتية

(ا) واجبات المرأة الاجتماعية فى مختلف مراحل حياتها ، بنتا وزوجة وأما ، لإمكان قيامها برسالتها الإجتماعية على أكمل وجه . (وبين الفرق فى الواجبات بالنسبة للريف والمدن)

(ب) نهى المرأة عن رذائل المدنية الغربية ، من تدخين ورقص وتبرج ممقوت ، إلى الحد الذى يثير الفتنة فى النفوس ، ونهاها عن الخروج إلا مع زوجها ، وعدم الاستماع إلى آراء الجاهلات ممن يسهلن لها الفعال الزميمة .

(حـ) كيفية توثيق العلاقات بين المرأة وجاراتها على أساس سليم من حسن الجوار والتسامح الدينى بين المرأة المسلمة وجارتها القبطية واحترام كل لدين الأخرى (وهذا جزء من دعوته القومية الكبرى نحو اتحاد جميع طوائف الأمة بمختلف أديانهم) .

(د) تقوية أواصر الإرتباط فى العائلة المصرية ، موجها النصح إلى الزوجة لمراعاة واجبها نحو زوجها وكذلك إلى الزوج لاحترام شخصية زوجته ورعاية مصالحها وعدم الانحدار

إلى المسكيفات والرذائل التى تعمل على هدم العائلة وتؤذى اقتصادها .

٣ — مجلة المربى : - كتب فى مجلة الأستاذ فى ١٨٩٣/٤/٢٥ (إنه شرع فى إصدار مجلة المربى لتبحث فى مايهم المرأة من فهم للآمور الصحية ، وتدبير المنزل ، ورعاية الطفل والأمومة والعادات ، والأخلاق ، وقد وعدنا بإصدارها إذا اجتمع عدد وافر من المشتركين) ولـكن القدر أبى أن يحقق للبلاد هذه الأمنية ، وأغلقت الأستاذ أبوابها ورحل الـكاتب إلى منفاه البعيد من وادى النيل ، ولو صدرت هذه المجلة لـكانت أول مجلة من نوعها فى مصر والشرق العربى .

٤ — سعيه فى حماية المرأة :

(ا) دعا إلى إلغاء البغاء .

(ب) عدم التطرف فى حفلات الأفراح وإدخال الراقصات الخليعات فى المنازل مما يؤثر تأثيرا سيئا على شعور وأخلاق فتيات ونساء الأسر المحافظة الفاضلة .

(حـ) محاربة الرقيق الأبيض ، بوسائله المختلفة التى منها استخدام الفتيات فى الخدمة فى المنازل كغرض ظاهرى وغرض آخر لا يتصل بالفضيلة ، فيعبر النديم فى بعض المحاورات عن تعاسة حال الخدمات ، اللاتى بدلا ما كان يعن فى عهد الرق

إلى سيد معين ، أصبحن يبعن كل مرة لسيد مدة معينة ويتألم لحالتهن ، ويثير فى قلب المجتمع وضميره العطف على قضيتهن .

(د) ثم دعا إلى الزواج المبكر لحماية الأسرة المصرية .

٨ — الأدب الشعبي

إن الأدب الشعبي الحق ، أعنى الجدير بالإنتساب إلى الشعب ، هو الذى يعبر عن إحساسه ورغباته ، وهو الذى ينظم اتجاهاته ويوحى إليه بالتسامى والتساند ، والسلوك أقوم السبل إلى أكرم الغايات ، ولا بد أن يكون هذا الأدب صادراً من شعور قوى صادق ، وعن فهم دقيق لكل ما يعبر عنه من شئون الشعب وشجونه ، كما يجب أن يكون تعبيره لطيفاً جذاباً سائغاً ، لاحداث الأثر المطلوب فى نفوس الشعب ، وهذا يقتضى أن يكون من حيث لغته وأسلوبه ، بحيث يسهل على قارئيه وسامعيه أن يحسنوا فهم معانيه ومراميه ، وبحيث يطربون له ويعجبون به ، ولقد اصطلح الأدباء ، ونقاد الأدب على تقسيم الأدب إلى قسمين : أدب خاصة وأدب شعب ، ولا فارق عندهم بين هذين الأدبين ألا من حيث أداة التعبير ، وهل تكون هى اللغة الفصحى التى تجرى الألسنة

والأقلام ، وفق القوانين والقواعد الموضوعة لها ، أو تكون هى اللغة الدارجة التى تتخاطب بها العامة ، على أن كثيرا من الأدب المعبر عنه باللغة الفصحى ، قد يكون أدباً شعبياً من صميم حياة الشعب ، ومصوراً لها أدق تصوير ، وكذلك نجد بين ثمرات الأدب المعبر عنه باللغة الدارجة الشعبية ما يصور حياة الخاصة ، ويعبر عن أفكارهم ومشاعرهم .

ويمكننا القول أن الأدب الشعبي هو الذى يفهمه عامة الشعب ويتأثرون به ، سواء أكان باللغة الدارجة التى يتخاطبون بها ، أم كان بلغة عربية فصيحة سهلة ، والبلاغة كما عرفها المختصون هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ولما كان السواد الأعظم من الشعب قاصراً وما زال ، عن تذوق آثار الأدب العربى القديم لجهله أكثر ألفاظه وأساليبه الخاصة ، فمن الخير لهم وللأمة كلها أن يخاطبهم الأدباء بالألفاظ والأساليب التى تلائم خلقهم ومداركهم .

لذلك كان عامة الشعب أشد تأثراً بالأدب المصنوع بلغتهم وعلى قدر عقولهم ومداركهم ، كتعديد النائحة ، والمواويل الحماسية والغرامية والقصصية ومحاورات (الأدباتية) والقصص المنظومة عن الأولياء الصالحين وأبطال الأساطير .

ولقد اتسع هذا الأدب فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر

لمختلف الأغراض التوجيهية والحماسية والتثقيفية والتهذيبية وغيرها .

ولقد كان عبد الله النديم من أكبر أقطاب هذا الأدب ، فقد استطاع أن يدفعه ، حتى اتسع لتوجيهات وأهداف النهضة الحديثة والإصلاح الإجتماعي ، واستفاد بأدبه الشعب بجميع طبقاته — وكثير من إنتاج النديم الأدبي كان شعبيا ، فأحاديثه وأزجاله ومحاوراته ، وخطبه ، ومقالاته الاجتماعية ، ومسرحياته وندواته الأدبية (صالون متنقل) التي كان يغذي منها الشعب من أعيان وفلاحين وعظماء تعد أفخم أدب شعبي قام به أديب إلى الآن .

ولو جمعت أحاديثه ، وقيدت نوادره ، بما ألقاه ، أثناء إقامته في الريف في منازل الكبراء الأعيان لكان لنا مجموعة ضخمة ، ومؤلف جامع رائع لأحسن ما انتجته قريحة أديب شعبي ، أوتي الفيض الزاخر من ألوان الحديث والسمر الأدبي والقصصي والشعري ، وفي كتابته في صحفه اغترف من كل البيئات الشعبية ولم يتردد في كتابة كل ما يتساقط من لغة العامة وتعابيرها ، حتى ماندمنها عن الذوق وحسبه في ذلك الاصلاح .

تحدث عن الصناعات الشرقية التي كادت أن تنقرض في عهده وتحدث عن الريف وعادات أهله وأساليب معيشته باللغة الدارجة وتحدث بلسان العامل والزارع والفلاحة والزوجة المدنية ،

والخادمة ، والتاجر الاجنبي والمرابي والمحامي والنصاب ، والمرأة بنفس أسلوبها وحديثها فى الحياة الواقعية ، ثم كتب هذه الاحاديث على شكل محاورات وقصص صغيرة بسيطة كان يتجه بها إلى أغراض معينة من نقد لكل وضع مضطرب من أوضاع المجتمع .

ولقد بلغت هذه الأحاديث . والقصص البسيط الطريف ، والمحاورات الجذابة شأوا كبيرا من التأثير فى الجماهير ، وقد اجتذبت النساء لها ، فأظهرن اهتماما بالغاً بها ولنضع أمام القارىء نموذجا من ذلك الأدب ، وهى محاورة بين (حنفى ونديم) نشرت فى الأستاذ فى ١٨٩٣/٢/٢٨ يحث فيها على قراءة الجرائد والانتفاع بها فى تحسين اللغة الدارجة ومعرفة الأخبار والحث على الاتحاد بين الطوائف . وهى نموذج للمحاورات العامية .

(ح) أنت ياسيدنا عملت كده ليه كل جمعة تقول إياك تفتكرنا بكلمتين ، وتتحفنا بعبارتين نلاقيك ماسك فى العضمة الخشنة ونازل على عيون الخاينين والمنافقين بقى مافيش لنا خاطر عندك وإلا الفقراء يروحوا فى داهية .

(ن) أنت يامعلم حنفى لم تزل على جهلك أرى حنيفة تكلمنى بكلام طيب موزون وانت تقول مانيش ولية وتتكلم بالكلام

العامى مع إنك صاحبتنى من مدة ، أذهنك أضعف من ذهن حنيفة . يمكنك أن تتكلم بالكلام البلدى فى عبارة لطيفة تعجب الجاهل والعالم ولا يعيبك فيها أحد ، فجاهد نفسك وقلدنى فى الكلام تكن من صف اللطفاء .

(ج) أنا وحياتك ياسيد أقدر أكلمك بكلام مليح يعجب السلطان ، وإنما الإنسان أخذ على الكلام مع الجهلة فغلب عليه كلامهم ، وإلا أنا دائما أسمع الجرائد وأفهم عبارتها . .

(ن) ومن إيك تأتيك الجرائد ؟

(ج) أنا والمعلم عفيفى والمعلم بيومى والحاج يوسف والحاج دسوقى عملنا جمعية واشتركنا فى جملة من الجرائد واستأجرنا كاتبا يقرأها لنا .

(ن) حيث أنك تقرأ الجرائد قل لى على ما رأيته فيها وأخبرنى عن الجريدة الطيبة والجريدة الرديئة لاتحقق انتفاعكم بها من عدمه

(ج) أول ما اشتركنا اشتركنا فى الأستاذ لكون كلامه على قدر عقولنا ، ولما اتسع فهمنا رأينا المؤيد ماسكا على الجد وماشيا مع الأستاذ فى طريق واحد ، فاشتركنا فيه ورأيناه يخدم الوطن بنية خالصة ويكتب الفصول العجيبة ويدافع عن حقوقنا بقوة ، وبعدها التفتنا لقينا النيل تنادى بصوت رقيق فاشتركنا فيه فوجدناه من المجتهدين فى خدمة الوطن الساعين فى تهذيب الناس وحفظ

الحقوق العثمانية ورأيناه يكتب كل لمحة تسحر العقول وتبين للناس الحقائق بقلم لطيف وعبارة سليمة ، فقلنا تم لنا السعد بوجود هذه الجرائد ما نشعر إلا وواحد ينادى بالوطن فاشتركنا فيه وجدناه من جنس هذه الجرائد ورأيناه وطنيا ينادى باسم مصر ويدافع عن حقوق رجالها ، ويحرض الناس على السعى خلف الأمور النافعة وأحسن مقاصده ترجمة كلام الانكليز ليطلع عليه إخوانه المصريون ومحافظته على الروابط التى بيننا وبين الأقباط يعنى رأيناه واحدا منا يفرح لفرحنا ويحزن لحزننا فقلنا تم الحظ وصارت كلمة المسلمين والأقباط واحدة ، فلم يبق هناك خوف من أحد يفسد أحوالنا ، وبعدها يا أخى سمعنا بجريدة أسمها الأهرام فاشترينا منها نسخة وقرأناها وجدناها نازلة على عيون المضلين والمضيعين حقوق المصريين فقلت لابد وأن نشترك فيها ، فوقع خلاف بين الجماعة وقال بعضهم محررها سورى فقلت دا جماعة السوريين أخواتنا وجيراننا وتحت حكم سلطاننا ، ويلزمنا أن نكون عصا واحدة فى المحافظة على حقوقنا الوطنية ولا يلزم تفريق الكلمة وإحداث العداوة والبغضاء ، ونحن محتاجون لقطع عروق العداوة فقام المعلم عفيفى وقال أن بعض السوريين يكتب ضدنا ويشتم جرائدنا الوطنية ويكذب على حكامنا ويمدح الأجانب ويذم المصريين ، فكيف نشترك فى جرائدهم بعد ذلك ، فقلت له كل

امة فيها الصالح والطالح ، والأمين والخائن ، أفلأجل المنافق منهم أوالغاش ينقض هذاالجنس المختلط بنا من قديم الزمان ، أن الخائن منهم عرفناه فنتجنبه ، وقليل الحيا منهم لا ينبغى أن نلتفت إليه ولا نعده من بنى آدم ، ولكن لا ينبغى هجو المخلص منهم والصادق فى خدمته ، وإن كان فى الجرائد أو فى الحكومة ، وجريدة الأهرام نراها تنــــادى بآمال المصريين ، وتسعى فى المحافظة على حقوقهم ، فلا ينبغى أن نعدها فى الجرائد الفاشلة فضلا عن كونها أقدم الجرائد العربية فى بلادنا وصاحبها شرقى مثلنا ، ومثل الأهرام (المحروسة والاتحاد) فإنهما مجتهدتا فى خدمة مصر وأهلها فينبغى أن نشترك فيها أيضاً . فتم الرأى واشتركنا فى الأهرام والمحروسة والاتحاد من جرائد السوريين ، وصرنا نجتمع كل ليلة نقرأ اليومى منها وفى كل أسبوع نقرأ الأسبوعى ، فحصل عندنا تنوير ذهن واتساع أفكار من كثرة المطالعة والسماع وهذا كله من نتائج نصائح الأستاذ وإرشاده ... الخ .

٢ — النديم الزجال .

نشأ الزجل فى الأندلس ، حين استفاضت حياتهم باللهو وزخرت بالمتع وحفلوا بالغنى والكسل فاستعملوا الزجل كنوع من الشعر الغنائى — خالصاً من كثير من قيود الشعر العادى

ولو أنه ذو أوزان خاصـــة ، ويكثر فيه استعمال الألفاظ والعبارات العامية .

والزجل هو لغة الشعب التي تعبر عما يجيش بصدره في أسلوب سهل بعيد عن التعمق في المعنى ، والزخرفة في اللفظ ، فلا غرابة إذن أن يكون الزجال شاعر الشعب الذي اندمج فيه وعاشره معاشرة الأم الحنون لأولادها ، فعرف آماله وأحس بآلامه ، وكشف عن أمراضه الاجتماعيـة التي تنخر في عظامه وعالجها معالجة دقيقة .

لقد كتب شاعر الشعب عن الفلاح المجاهد القنوع ، الذي لا يمل بحمله المتواصـل صابراً على الحرمان والفقر والفاقة والجوع ، وعن العامل المصري وحقه المهضوم وعن السائل والمحروم ، وعن صغار الموظفين والتجار المظلومين ، وأجاد تصوير شخصية ابن البلد ، فعرف جيداً كيف يحب ويتألم صامتاً ، وكيف يجاهد في حياته متحملا الصدمات بصدر رحب ، ثم جال في الريف ، فاحصاً آفاقه الفسيحة ، مقتنصاً سوانحه البهيجة ، مرسلا أغاني الفلاحات ألحاناً مشـجية تملك القلوب ، ووصف الساقية والمحراث والشادوف وأيام الحصاد وغيرها ومن الجلي أن يكون الزجال صادقاً في كل ما ينظم لأنه يصور ما يحس به في البيئة التي تربى بين أحضانها ، ولقد أوحت إليه تلك البيئة بنظم

ما يشعر به ، فى أسلوب صادق رقت معانيه وتسلست قوافيه .

إن هـــذا الأدب العامى الذى ظهر بمصر فى الأزجال هو من تاريخ الأدب العربى المصرى ، لاحتوائه على كثير من حركات العقول ، فلا بد إذاً لمؤرخ الأدب أن يعرج على هذا النوع من الشعر العامى ليقف على تاريخ الأدب العربى فى عصره . والنديم كان أمام الزجالين فى عصره بلا منازع . وقد ساعدت أزجاله الرائعة بالسمو بأفكار العامة . ورقى الذوق الأدبى وتهذيب اللهجه العامية بالألفاظ الرشيقة الجديدة والمعانى المهذبة الرقيقة ، وكانت له مقطوعات غنائية . ترددها مجالس الطرب وينشدها المغنون وكانت مشهورة فى عهـــد الثورة العرابية .

ولكن لم يصلنا الكثير من أزجاله . إلا ما نشر فى صحفه . وكان نفيه الطويل عقب هزيمة العرابيين . ورهبة الناس من الإتيان بذكره . كبير الأثر فى نسيان الناس هذه الأزجال . كذلك ضياع جميع ما ألفه منها أثناء إختفائه .

وبعد العفو عنه واستئنافه نشاطه الصحفى والسياسى من جديد لم يحفل بالزجل لانشغاله بالصحافة .

٨ — النديم زعيم الخطابة فى الشرق

مقدمة :

ليس يؤثر عن العرب فى الجاهلية سوى خطب الكهان ، وكانت الخطابة فنا معروفا مشهوراً فى ذلك الوقت ، يمارسه الرؤساء وذوو الرأى فى القبائل ، للمناشدة والاستفسار والدعوات الاجتماعية المختلفة فى ذلك العصر ولكن آداب الجاهلية من شعر وخطابة عفى آثارها الإسلام ، لما كانت تحتويه من نخوة جاهلية وإشارات عن شعائر وثنية .

ثم جاء الإسلام فخطب النبى ، كما خطب الخلفاء الراشدون . وما كانت الخطابة فى هذا العهد قاصرة على ذكر الموت والزهد والتحذير من الدنيا وزخرفها بل كانت تتضمن الحوادث وأخبار الأمة . وصارت خطبة الجمعة منذ ذاك الوقت ، من أركان الدين وقد كان القواد العسكريون يحضون بواسطتها على منازلة الأعداء .

ثم جاءت الدولة الأموية ، فظهرت الخطب السياسية وصار الخطابة شأن وفن يمارس ، ولعلنا ندرك أهمية الخطابة فى ذلك العهد من اهتمام جميع المؤرخين بما فعله الوليد بن عبد الملك إذ كان يخطب وهو قاعد .

أما فى الدولة العباسية وهى فى اعتقادنا سبب انحطاط شأن

الخطابة ، لنزوع الخلفاء نزعة دينية محضة ، فقد صارت الخطب تنسخ نسخاً وتحفظ حفظاً ، فيفيض سجعها غثاثة ، ويشبه أولها آخرها فى قلة المعنى واتساق الفهاهة .

ثم اجتاح المغول الدول العربية ومحوها من الوجود إلا صورة أبقوها فى الخلافة الإسلامية ، وحكم المغول الدول العربية من كرد وترك وأفغان وسائر الأمم الأسيوية فانحط الأدب وكسدت سوقه وظلت الخطابة حتى أول هذا العصر على ما كانت عليه فى آخر العصر العباسى ، لا يتعدى أثرها الجوامع والبيع حتى ظهر عبد الله النديم .

وكان النديم أول خطيب ظهر فى مصر ، وكانت له مواهب خارقة فى الخطابة من قوة التعبير ، وانطلاق النفس والبحر الفياض من المعانى والألفاظ وكانت له ملكات أخرى تقوى خطابته وتدعمها ، من شعر وأدب ودراية بفنون الإنشاء وقد ملك زمام الخطابة وعد الفارس المجلى فى حلبات معاركها ، والمقتحم الجرىء الذى لا يشق له غبار ، والخطيب الأوحد الذى أوتى البيان الساحر القوى ، فى سهولة ويسر ، تتدفق الألفاظ من فمه كتدفق النهر ، وتسرى بين ثناياها معانيه قوية كالنار ، فائره صخابة كالموج ، وحين يكون النديم مندفعاً فى موضوع وطنى خطير فهو يدفع الشعب دفعاً ، ويثيره إثارة ، وينحو به نحو

المعانى والأهداف التى يرمى إليها ، وقد استعمل النديم موهبته فى إيقاظ شعور المصريين نحو حقوقهم وواجباتهم ، ونحو وطنهم والظلم الذى ناءت به ظهورهم فكان أعظم خطيب فى عصره ، وزعيم مدرسة خطابية ، مهد لها لمن بعده .

وقد خطب النديم فى كل مكان ، فى المدرسة ، وفى المنتدى ، وفى القرية ، وفى المدينة ، وبين الأقطاب ، ورجال الأمة ، وبين العامة . خطب فى أفراحهم وبيوتهم وبين جموعهم . كان محبوباً بين الجماهير مؤثراً فيهم ، وقد اشتهرت خطابته فى عهد الثورة العرابية ، فكان بوقاً للعرابيين ولساناً لهم ، بل كان بمثابة وزير الدعاية فى عهد الثورة العربية .

ولو انفرد النديم بتلك الموهبة فقط لكفاه أن يكون بها أحد أقطاب التاريخ فليس الرجل العظيم هو الذى يفتح المدائن ويحرر الأمم ويرفع شأن الوطن بالسيف والرمح والمدفع ، بل أن هناك رجلا أعظم ، هو الذى يفتح القلوب ويرسم عليها ما شاء من ضروب الوطنية ونغمات محبة الأوطان ، فالرجل الذى يستطيع بقلمه ولسانه أن يكون قلوباً حساسة ، تدرك ماهية حب البلاد وتضحى كل نفيس فى نصرتها ، فهو فى مرتبة أجل وأسمى من غيره وهو الخليق أن تسير بعظمته الأمثال .

إن الذى يعتمد على القلم واللسان ، فيملى عليهما ماوهبه الله

من علم وبيان ، يسحر بهما القلوب فيجمعها فى قبضته ، ليصوغ منها أمة حية راقية ، لهو أعظم مشيد للمجد فوق أمتن الأسس ، وكيف لا يكون عظيما من يملك القلوب وهذه القلوب هى الحياة مجتمعة .

كان النديم عظيما لأنه حمل قلباً كبيراً وفؤاداً حساساً وكان ذا سلطان فعال وسطوة نافذة على مواطنيه ، فامتلك قلوبهم ، ولقد امتلأ قلبه بالتفانى فى إعزاز البلاد والتضحية فى سبيلها فكان براً بالفقراء واليتامى من بنيها ، داعياً الأغنياء والموسرين للانفاق فى سبيل تعليمهم وتثقيف عقولهم ، وتذليل مرافق الحياة أمامهم ، لأن الفقراء هم حملة الأغنياء إن خلوا بهم يوماً سقطوا من أعلى نعيمهم إلى حضيض الفاقة ، فكانت خطابته تفيض بالروح الإنسانية والدعوة لمبادىء الرحمة والرخاء .

والعظيم مع هذا القلب الرحيم بالمساكين وأبناء السبيل ، يتحتم عليه أن يكون شديد البطش بالخائنين والمنافقين . فكان النديم كذلك حرباً على أعداء الوطن ولكم أثار النفوس عليهم بخطابته الملتهبة ! !

أعدت العناية النديم ليكون أول خطيب لا فى مصر فحسب بل فى الشرق العربى بأسره فكان ذا لسان عال وبيان واضح وبرهان ساطع وصوت جهورى وعبارة فصيحة، وأسمع العالم صوت أوله

خطيب مصرى ينادى بالحرية والمبادىء الدستورية ، وليس أدل على قوة النديم فى الخطابة واستعداده العجيب وقدرته على الارتجال من وقوفه فى المجلس الواحد عدة مرات ، يتكلم دون لجاجة ، فى معان مختلفة ومناسبات متنوعة ، فلا تخمد جذوته ، ولا تخف حدته ولا تهدأ قوته ، حتى لكأنك تظن إنه وصل ليله بنهاره فى تحضير خطبه ، وحفظ معانيها واستذكار ألفاظها وعباراتها ، وحين وقع الخديو توفيق المرسوم بصدور الدستور فى ١٨٨٢/٢/٧ ، وعرض رسميا على نواب الأمة فى ١٨٨٢/٢/٨ ، أقامت الأمة ، ممثلة فى نوابها حفلات الابتهاج والبشرى لهذه المناسبة ، فكانت جميع هذه الحفلات بدون استثناء مسرحاً لخطابة النديم .

وأهم هذه الحفلات كان الحفلة التى إقامتها جمعية المقاصد الخيرية ليلة الإثنين [١] ١٨٨٢/٢/١٣ وكانت حفلة جامعة لكل مظاهر الفخامة ، حضرها محمود سامى البارودى باشا وعرابى باشا وبقية الوزراء وعدد جم من كبار الضباط والعلماء والنواب والأعيان فازدحم بهم المكان ، ولما اكتمل جمعهم ، نهض خطيب الثورة عبدالله النديم وافتتح الاجتماع بقصيدة كان لها وقع جميل فى النفوس ثم شكر الحاضرين على إجابتهم الدعوة واحتفالهم بالتصديق على لائحة النواب (الدستور) .

---

(١) وصف الاجتماع بالوقائع المصرية عدد ١٥ فبراير سنة ١٨٨٢ .

ثم دعا إبراهيم افندى اللقانى إلى الخطابة فالقى خطبة أبان فيها الفرق بين ما كانت عليه البلاد من الاستبداد ، وما صارت إليه من الحرية والشورى . وبعد أن جلس قام السيد عبد الله النديم مرة أخرى وأثنى على الخطيب وعقب على خطبته مبيناً فضل العهد الجديد على العصر الماضى ، ثم دعا إلى الخطابة مصطفى افندى ماهر ، فتكلم بما أملته روح الشباب ، وحث على الاجتهاد فى تحصيل العلوم والفنون ، واستحث فيها الأغنياء على إنشاء بنك أهلى ، يستغنى به الأهلون عن الاقتراض من المرابين بالفوائد الفاحشة وانتقل من ذلك إلى النصح بالاتحاد وائتلاف الكلمة .

وبعد أن انتهى من خطبته نهض عبد الله النديم وعقب عليه بالإفاضة فى بيان التربية الابتدائية والوجوه اللائقة فيها ثم دعا إلى الخطابة الشيخ محمد عبده خطيب الجمعية الرسمى ، وكان وقتئذ رئيس تحرير الوقائع المصرية فألقى خطبة ضافية أبان فيها مزايا الحكومة الدستورية .

وقام النديم مرة رابعة وعلق على خطبة الشيخ محمد عبده بما توجهت إليه فكرته واستطرد فى الكلام عن أحوال المدارس والمكاتب .

ثم دعا النديم إلى الخطابة أديب افندى اسحق وكان وقتئذ الكاتب الأول لمجلس النواب ، فقام وألقى خطبة عبر فيها عن شعور

النواب وتضامنهم والوزارة فى كل ما يجلب الفخر للبلاد ، وبعد أن انتهى أديب اسحق من كلامه أعقب خطبته فترة استراحة ، جلس فيها الخطباء يستريحون من[1] تعب الخطابة وأخذ الحاضرون يتذاكرون فيما سمعوا من الخطابة .

وحصل حوار بين السيد عبد الله النديم واثنين من الحاضرين فيما ذكر من أساليب التعليم ، ثم انصرف المجتمعون فرحين مسرورين .

وهذا الاجتماع يعطينا فكرة واضحة عن مقدرة النديم فى الخطابة فان نهوضه فى هذا المحفل خمس مرات ، والقائه خمس خطب مختلفة المواضيع والعبارات مما كان أغلبه مرتجلا ارتجالا ، يدل على مواهبه العظيمة وكان جديراً حقاً بلقب خطيب الثورة العرابية .

وفى ١٨٨٢/٢/١٩ أقام النائبان أحمد محمود وإبراهيم الوكيل حفلة أخرى ابتهاجاً بالدستور وتكريم جمعية المقاصد الخيرية ، حضرها الوزراء والنواب ثم خطب فيها الشيخ أحمد محمود ثم أديب اسحق ثم عبد الله النديم وخطب فى وجوب التمسك بالحقوق النيابية ورعاية الواجب لكل فرد ، واجتناب التقصير وملاحظة قيم النفوس وإقدارها ثم دعا فتح الله زكى الطالب بالثانوى فاعقبه النديم ثم فتح الله صبرى ثم محمد عبده ثم أعقبه النديم وتلا عدة آيات

---

(١) كما جاء فى وصف الإجتماع .

من القرآن الشريف وشرح كل واحدة منها شرحا بليغاً بديعاً في الأسلوب ، وكان عند كل آية يأخذ في الحث على التمسك بها و بيان موضع الأخذ بما دلت عليه من الحكم ، ثم حث على رعاية الذمة وحفظ العهود وحسن المعاشرة و مجاملة الأجانب وملاينتهم والسير معهم بما يقتضيه قانون الأخوة الانسانية . ثم قام أحد الضباط وارتجل خطاباً بليغاً حث فيه على التمســك بخلق الشجاعة والاتحاد وقام بعده النديم شارحا عباراته ومؤيداً لها ثم تلا قصيدة من نظمه كان لها وقع حسن فى النفوس .

وفى ١٨٨٢/٣/٣ أقام أحمد بك أباظة حفلة فى منزله بالقاهرة ابتهاجاً بالدستور دعا إليها النواب والوزراء والعظماء وقد افتتحها عبد الله النديم بخطبة حث فيها على وجوب رعاية صلات الجوار ومعاشرة الأجناس بكمال الملاينة والمحبة فإنهم إخوان فى الإنسانية ، والكل يرجع إلى أصل واحد ثم قام الشيخ محمد عبده وأتى خطاباً بليغاً بين فيه مزايا الحكومة الدستورية ونوه بفضل المساواة والحرية وقام بعده عبد الله النديم وخطب حاثاً على توسيع دائرة الصناعة وتكثير موادها والتفنن فيها لتكفى البلاد مؤونة الحاجة وتكسب أبناءها ثمراتها وبركات أرضها وأفرغ كل ذلك فى قالب بديع فكان لخطابه الوقع الحسن فى نفوس السامعين ثم قام إبراهيم

اللقانى وخطب بفضل هـذه الحفلات وقام عبد الله النديم وعلق على خطبة اللقانى ثم قام فتح الله صبرى ثم أعقبه عبد الله النديم وتكلم عن وجوب مساعدة الفلاح لشدة حاجته ودعا الأغنياء إلى الأخذ بيده وبذل المجهود لاستخلاصه من الديون التى اثقلت كاهلة وهنا ذكر منقبة حسنة لأحد الأعيان فقال انه أدى عن أهل بلده ٥٠٠٠ جنيه فلم يبق أحد مديونا لأجنبى ..

ثم قام أحد الجنود فتلا خطابا عن حفظ الجوار ورعاية الذمم ثم قام النديم وشرح عبارات الجندى وتنقل إلى موضوعات شتى .

وأقام أحمد بك يكن احتفالا فى بيت منصور باشا يكن حضره العظماء والوزراء وكان النديم أهم خطبائها ، وأقام شبان الإسكندرية حفلة ابتهاج الثغر ، دعوا إليها النديم ، فقدم من العاصمة وحضر الحفلة وخطب فيها .

هذه الحفلات جميعها تكلمت عنها جريدة الوقائع المصرية واطنبت فى وصفها ، وأتت على كل ما قاله الخطباء فيها ، ونحن نخلص منها ، بفكرة واضحة عن أثر النديم فى عصر الثورة العرابية وكيف كان خطيباً مشهوراً يدعوه العظماء والكبراء ليكون الخطيب المجلى ، والمتكلم الأول فى حفلاتهم وقد تكلم عن المواضيع الحيوية التى تمس كبريات الأمور ونحن نلاحظ بعض نقط هامة منها :

١ ـ أنه كان يفتتح الحفلات بكلمة قوية منه ، ثم يقدم الخطباء ثم يتحدث عقب كل خطيب ، بما يتصل بالمعانى التى عبر عنها الخطيب .

٢ ـ أن معظم خطباء هذه الحفلات من تلاميذ الأفغانى ، بل كثير من عباراتهم عليها طابع السيد وأسلوبه وهذا يدل على الأثر الكبير الذى تركه الأفغانى فى مصر .

٣ ـ المعانى التى تكلم فيها النديم :

(أ) الدستور وقيمته والحياة الدستورية وكيف يكون أسلوبها ومزايا العهد الجديد (بعد منح الدستور) .

(ب) التعليم الإجبـــارى ووجوب تعميمه وأحوال المدارس والمكاتب وطرق إصلاحها وتعميمها وأساليب التعليم آنذاك .

(حـ) الحقوق والواجبات وأصول الحقوق النيابية .

(ى) خطابته الدينية بآيات من القرآن الشريف وشرحه لها .

(هـ) العلاقة بيننا وبين الأجانب المقيمين فى البلاد ووجوب حسن معاملتهم ومعاشرتهم وحفظ العهود .

ثم تكلم عن مبدأ خطير وهو معاملة الأجناس المختلفة بالحسنى لأنهم أخوة لنا فى الإنسانية : أى انه نادى بالعاطفة الإنسانية التى تفوق العاطفة الوطنية فى الاتساع .

(و) تشجيع الصناعة وتكثير موادها وإدخال الصنائع الحديثة فى البلاد .

(ز) دعا إلى النهوض بالفلاح وحث على مساعدته ومعاونته ثم ذكر منقبه لأحد الأغنياء سدد عن فلاحية ديونهم ، وذكر ذلك حتى يقتدى به باقى الأغنياء الحاضرين .

وهكذا كان النديم أول خطيب فى مصر ، سخر الخطابة فى المواضيع القومية الهامة ، التى تتصل بالنواحى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية للبلاد ، وأصبح بحق رائد الخطابة لأنه استحدث أغراضاً جديدة لها وفتح لها ميادين متسعة ومهد سبيلها ، لمن جاء بعده من الزعماء الوطنيين أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول وباقى الخطباء المشاهير الذين جاءوا بعد ذلك .

وحينما سافر أحمد عرابى باشا يوم ١٨٨١/١٠/٦ إلى الشرقية كان برفقته عبد الله النديم وكان يخطب فى الجماهير فى كل محطة يقف عندها القطار وكان يخطب بعده النديم شارحاً وموضحا أفكار رجال الثورة مؤيداً أقوال عرابى باشا .

أثر النديم فى الخطابة

الخطابة السياسية :

كان أول خطيب فى مصر برع فى الخطابة السياسية وبدأ النديم

خطابته السياسية فى الجمعية الخيرية الإسلامية الأولى وكانت أول جمعية للخطابة السياسية فى مصر أنشئت سنة ١٨٧٨ وكانت تجرى الخطابة فيها بدار الجمعية كل مساء فى المواضيع السياسية والاجتماعية والأدبية ، وقد ذكرنا آنفا أعمالها فى نشر التعليم وإنشاء المدارس .

الخطابة المدرسية :

كان النديم أول معلم فى مصر بل فى الشرق ، ادخل فى برامج التعليم الخطابة كفن يدرس علماً وعملا ، لطلبة المدارس الإبتدائية لأهميته فى تكوين المواطن الصالح ، وتربية الثقة بالنفس والاعتداد بالذات وروح الشجاعة فيه ، وكان أول من أنشأ الجمعية الخطابية المدرسية .

الخطابة المنبرية :

كانت الخطابة من عهد الأمويين إلى عهده قاصرة على المساجد وقد اتخذت حدوداً باهتة الأثر ، فكانت تتلى الخطب من صور محفوظة ، لاتحوى إلا معانى الزهد والتحذير من الدنيا وذكر الموت والتهديد بالعقاب فى الآخرة .

فدعا النديم إلى إصلاح الخطابة المنبرية ، وذكر أن ضعفها وانحطاطها من أسباب ضعف الأمم الشرقية واستكانتها، لاقتصارها

فى المساجد على هذا الوضع الذى لا يمس الحياة الواقعية بحال من الأحوال ، فدعا إلى وجوب مجاراتها الأوضاع القائمة ، والخروج بها من الجمود التقليدى ثم وضع عدة خطب منبرية آية فى الروعة وجلال المعنى ، وتعهد بوضع خطب أخرى ، ورجا وزارة الأوقاف أن تعاون على طبعها ونشرها بين أئمة المساجد وهو يرى أن هذه الخطب يجب أن تسجل المعانى الآتية :

١ — الحث على المحافظة على حقوق البلاد .

٢ — النهى عن الظلم .

٣ — الدعوة إلى الائتلاف لمواجهة الأخطار والاتحاد مع المواطنين جميعاً وعدم التفرقة بين الأديان .

٤ — الالتفاف حول الخديوى .

٥ — معاملة الأجانب والنازحين بالحسنى والتحذير من إتيان عمل يؤدى إلى تكدير العلاقات وتدخل الأجانب .

ومن ذكريات أثر النديم الخطابى فى عهد الثورة العربية ما كتبه أحمد شفيق باشا فى كتابه « مذكرات نصف قرن » .

« انقلبت مصر مسرحا للخطباء فى كل مجتمع وناد ، حتى فى المساجد ولم يبق مجلس للسمر أو الاحتفال بعرس أو غيره إلا اقتحمه الخطباء واعتلوا منصة المغنين .

وكثيراً ما كان الخطيب يستصحب معه بعض الطلبة من المدارس وبعد خطابته يقدم أحدهم للجمع ليخطب فيهم ، وينبرى الطالب مثيراً فى الحاضرين الغيرة والحمية ، وقد شاهدت عبد الله النديم يقدم فتحى زغلول الطالب بمدرسة الحقوق ليخطب وقدم مرة أخرى فى إحدى الحفلات الطالب مصطفى ماهر »

مراجع البحث

نذكر هنا أهم المراجع التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث

مجلة الأستاذ لعبد الله النديم

جريدة التنكيت والتبكيت » » »

جريدة الطائف » » »

ب المسامير » » »

كان ويكون » » »

» تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الرابع لجورجى زيدان

» الآداب العربية فى القرن التاسع عشر (الجزء ٢ من سنة ٨٧٠ إلى سنة ١٩٠٠) لويس شيخو

الشيخ نجيب الحداد لعادل الغضبان

تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات

تطور الصحافة المصرية لابراهيم عبده

أعلام الصحافة لابراهيم عبده

زعماء الاصلاح لأحمد أمين

» الثورة العرابية للأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى

» عصر إسماعيل جزء ١ » » » » »

» » » » ٢ » » » » »

» أحمد عرابى لمحمود الخفيف

.. دائرة المعارف للبستانى

كتاب تاريخ الأدب العربى	لأحمد السكندرى ، أحمد أمين ، على الجارم ، عبد العزيز البشرى
« سلافة النديم ج ١ ، ج ٢	لأحمد سمير
« مذكراتى فى نصف قرن	لأحمد شفيق باشا
« تاريخ مشاهير القرن الثالث عشر	لأحمد باشا تيمور
« مذكرات عرابى باشا	(كشف الستار عن سر الأسرار)
« مصر للمصريين	لسليم نقاش
« تاريخ المسألة المصرية	تعريب عبد الحميد العبادى ومحمد بدران
« انجلترا فى مصر	لمدام جوليت أدام
« أدب المقالة الصحفية ج ١ ، ج ٢	للدكتور عبد اللطيف حمزة

فهـــــرس

إن حياة السيد عبد الله نديم ، هى أروع
صورة لأول زعيم شعبى مصرى محبوب . ألهب